الإباضية في موكب التاريخ - 2

الاباضية فى ليبيا

تأليف: الشيخ علي يحي معمر



الإباضية في موكب التاريخ - 2

الاباضية فى ليبيا

تأليف: الشيخ علي يحي معمر



مقدمة

يسرني أن أقدم إليك أيها المسلم الكريم ، الحلقة الثانية من هذا الكتاب الصغير ، الذي سميته " الإباضية في موكب التاريخ" وفي هذه الحلقة التي أطلقت عليها "الإباضية في ليبيا " أتحدث عن هؤلاء الناس الذين يسكنون الجزء الواقع بين مصر وتونس من الوطن الإسلامي الشاسع ، هذا الجزء الذي يسميه الناس اليوم " ليبيا " ....

وما ليبيا ومصر وتونس والمغرب والباكستان وتركيا وغيرها مما يقع بينها أو حولها إلا وطن واحد ، لأمة واحدة ، تنتشر على أغلب قارات ، في عظمة وشموخ.رغم الحدود التي افتعلها الاستعمار ، في زمن الاستعمار ، وحافظ عليها الاستغلال ، في زمن الاستقلال ، ورغم التدويل (1) الذي يدعيه أصحاب المطامع على كل قطعة من هذه القطع ، ورغم الشعارات التي تقسم

1 - أقصد بكلمة التدويل في هذا الفصل جعل كل قطعة من الوطن الإسلامي الكبير دويلة صغيرة منفصلة عن بقية الأمة في نظام الحكم والسياسة.

بها السياسة المستغلة ، وحدة الأمة ، إلى أمم صغيرة يسهل السيطرة عليها، والتحكم فيها .

وأنا حين أقدم إليك هذا الكتاب الصغير ، لا أقدم إليك كتاب تاريخ ، يعنى بتسلسل الحوادث وترابطها ، ولا أقدم إليك كتاباً يرافق مواكب السلطان يحصى خطواته ، ويبرر أخطاءه ، ويفرض حكمه على الأمة الكريمة ، وإنما أقدم إليك صوراً من حياة الأمة المسلمة في أدوار كثيرة من التاريخ انتزعها من سيرة الفرد العادي ، ومن حياة المجتمع الهادئ في بعض الأحيان ، وأخذتها من مواطن النضال، وميادين القتال في بعض الأحيان الأخرى ، وكل ما أرجوه منك أيها القارئ الكريم ، أن تقرأ الكتاب كله ، وأن تتغاضى عما فيه من ضعف الأسلوب، أو ركاكة التعبير ، أو حدة النقاش ، وأن تتعمق إلى الحقيقة التي أقصد إليها . والمعنى السامي الذي أرمى إليه ، فإن قصر قلمي عن إبلاغ ذلك إليك ، فإن ما أهد إليه من كل كتاباتي ، أن تذوب الفوارق بين الأمة ، وأن ترجع هذه الأمة إلى كرامة الإسلام ، وأن تعلق أواصرها بالله ، فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين .

التاريخ بين الدولة والأمة

إن تاريخ الدولة ، قد يكون هو نفسه تاريخ الأمة ، وقد يكون جانباً من تاريخ الأمة ، وقد يكون أبعد الأشياء عن تاريخ الأمة ، والمؤرخون في أغلب الأحيان يندفعون إلى تسجيل حركات دولة ما ، وأعمالها ، على أنها تاريخ الأمة التي تسيطر تلك الدولة .

وفي الأحيان التي تكون فيها الدولة مستبدة أو صاحب السلطان طاغياً فإن المسافة بينها وبين الأمة سحيقة البعد ، ومع ذلك فإن الكتاب الذين يشتهون أن يكونوا حداة للموكب الظالم ، أو أبواقاً لدعايته يكتبون وهم يعتقدون أو يتظاهرون بأنهم تاريخ الأمة ، وقد وقعت بهذه الطريقة مغالطات كبرى في تاريخ البشرية . وسوف أضرب أمثلة لما أرمى إليه حتى يتضح فكرى للقارئ الكريم .

يتحدث مؤرخ عن عظمة الأمة المصرية في عصر الفراعنة ، ويلتمس الشواهد على ما وصلت إليه هذه الأمة من مجد وحضارة ، فيقدم للقارئ الكريم ، الشواهد الثابتة التي لا تتغير ، يقدم إليه الأهرام ، هذه الجبال الشاهقة التي صنعتها أيدي

البشر ، في فترة من تاريخها الطويل ، فهل كانت الأهرام حقاً من الشواهد على عظمة مصر ؟ أيام كان خوفو يتولى زمام الحكم فيها ؟

قد تكون هذه الظاهرة براقة خادعة ، ولكن الإنسان إذا تغلغل إلى حقيقة التاريخ ، سرعان ما يعرف أن هذه الشواهد أبعد شئ عن حقيقة تاريخ الأمة المصرية في ذلك الحين . إنها قد تكون صورة من تاريخ خوفو ، فرعون مصر المريض بداء الحقارة ، أو دليلا على تمكن هذا المرض من نفسية ذلك الملك الطاغية . ولكنها ليست على كل حال حقائق من تاريخ الأمة المصرية .

إن الناظر الساذج قد ينبهر بعظمة هذا العمل . وقد يحسبه من أمجاد الأمة ، ولكن هل

نجد حقاً في ذلك العمل عظمة ومجداً ؟

أعتقد أن تلك الحالة كانت أبعد شيء عن حقيقة العظمة والمجد ، وأقصى شيء عن تاريخ الأمة وأعمال الشعب .

مائة ألف من الأجسام الفتية ، والسواعد القوية ، تسخر لنحت الصخر ، ودحرجة الحجر ، مدة لا تقل عن عشرين سنة . لو وجهت هذه الجهود لعمل مثمر ، لشقت مجرى نيل ثان يروي صحراء مصر القاحلة ، فوجد فيه الملايين من سكان مصر جنة على الأرض . ولكن النزوة الحمقاء التي سيطرت على رأس ملك المريض بداء الحقارة – أعوزته العظمة في نفسه ، فراح يلتمس لها الوسائل في الخارج – أبت أن توجه تلك القوى إلى الاتجاه النافع للأمة . فإذا بمجهودات الأمة جميعاً تسخر لإرضاء هذه

النزوة الطائشة .

وتمض عشـرون عاما من حياة هذه الأمة لتبنى قبر شخصين ، وتصبر وهي تعمل تحت لذع السياط ، لتقدم المجنون قوة البدن وثمرة الإنتاج ، والمال القليل الذي تحصل عليه بالكفاح المستمر .

وفي هذا الحين ، الذي تبلغ فيه الأمة المصرية أحط ما تصل إليه أمة من الذلة والهوان ،والاسترقاق والمجاعة تحت حكم طاغية ، لا يجد بعض المؤرخين عنتاً في أن يشيدوا بالمجد العظيم الذي بنته الأمة المصرية . حين أقامت الأهرام .

إن هؤلاء المؤرخين يحسبون أن السلطان أو الأداة الحاكمة هي الأمة ، وما دام فرعون يعمل فإن عمله يعتبر تاريخاً للأمة ، وهم حين ينظرون إلى هؤلاء الآلاف من الناس ، الذين يكدسون الرمال ويرصفون الطرق ، ليدحرجوا القرية ليحمل نفقة العام، كأنما كل واحد من هؤلاء جاء بمحض إرادته ليبنى لنفسه برجاً في هذا القصر العظيم . ولم يلمحوا الفقر والذلة والمهانة التي تبلى بها الأمة ولا العذاب والسياط التي تسلط على هذه الجماهير الكادحة ، في عمل شاق ليست له ثمرة إلا الشهوة ، شهوة فرعون أن يكون عظيماً ، وأن يكون قويا وأن يكون من المخلدين .

فهل يعتبر هذا العمل حقاً من تاريخ الأمة ؟ هل تعتبر هذه الآلاف من العمال المسخرين الذين يدهدهون الصخر من الصبح إلى المساء ، وأبناؤهم يقتلهم السغب والفاقة ، هل تعتبر هذه الآلاف العاملة تحت السوط والسيف ، من الأمة ؟

وهل يعتبر عملها هذا تاريخا للأمة ؟

إنني لا أستطيع أن أتصور ذلك أبداً ، وكل ما أفهمه أن هذا قد يكون صورة من تاريخ فرعون ، وأن هؤلاء الآلاف الذين يعملون باستمرار مدة عشرين سنة ، ما هم إلا آلة صماء ، يحركها زر في يد فرعون . فهم في الحقيقة ليسوا قسما من الأمة ، فيكون عملهم تاريخاً لها ، وإنما هم قوة في ساعد فرعون ، وسواء كان هذا العمل الذي عملوه والجهد الذي بذلوه ، والجبل الذي شادوه ، سواء كان ذلك عظمة ومجداً ، أم مرضاً وشهوة ، فإنه من تاريخ فرعون وحده . لا من تاريخ أمته .

ضربت المثل بهذه الحوادث لأنني أعتقد أنها واضحة .

ومن المؤسف أن أكثر المؤرخين في مختلف العصور – حتى في هذه العصور التي كادت تتحرر فيها البشرية من طغيان الفرد واستعباده – لم يتحرروا من هذه النظرية التي لا تفرق بين الأداة الحاكمة والأمة ، فتجدهم يلهثون وراء السياسة يحدون لها ويصفقون، حاسبين أن عظمة التاريخ في أن يسيطر رجل أو هيئة ، على بقاع كثيرة ، فيتمتع بما لا يتمتع به غيره من شهوات ، ثم يسجلون ذلك على أنه تاريخ الأمة ، أمة ذلك الرجل ، أو تلك الهيئة .

إن هذه الصورة لا يمكن أن يكون فيها تاريخ الدولة تاريخاً للأمة . إن تاريخ الأمة بعيد جداً عن هذه المظاهر السخيفة ، التي تهدر فيها كرامتها ، وقوتها وإنتاجها .

أما الصورة الأخرى التي يكون فيها تاريخ الدولة هو تاريخ الأمة ، فذلك عندما تكون الأداة الحاكمة خاضعة لقانون الأمة

وشوراها . فلا تصدر إلا عن رأيها . ولا تمتاز بشيء عن أي فرد منها . وفي الفتوح الإسلامية زمن الخلافة الرشيدة أمثلة واضحة لذلك. إن تاريخ الدولة في ذلك الحين هو نفسه تاريخ الأمة، وذلك لأن ما يصدر عن الدولة هو ما يصدر عن الأمة راضية به راغبة فيه .

إن الأمة جمعاء كانت تقوم بالغزوات الفاتحة مندفعة إليها . متسابقة إلى القيام بها . دون وعود بالمرتبات أو حصر بالدواوين . أو إكراه بالتجنيد الإجباري . وإنما كانت انتفاضات منبعثة عن عقيدة من أمة كاملة . ليس للأداة الحاكمة منها إلا تنسيق العمل وتنظيم الصفوف . ولذلك كانت هذه الحركات تاريخ أمة لا تاريخ دولة . وأن الدولة كانت داخلة في الأمة . معبرة عنها تعبيراً صحيحا صادقا لأن جميع ما تقوم به من نشاط داخلي أو خارجي كان يصدر عن حقيقتين ثابتتين: حكم الدين . ورأي الأمة .

أما الحالة الثالثة التي تكون فيها تاريخ الدولة جانبا من تاريخ الأمة . فأعنى به عندما تقوم دولة في قسم من أقسام الوطن . وتحرص هذه الدولة أن تصدر في أعمالها عن حكم الدين ورأى الأمة . وفي التاريخ الإسلامي أمثلة من ذلك .

ولم أحسب هذا التاريخ تاريخ الأمة . لأن الأمة . اكبر من ذلك وأوسع . فعمل هذه الدولة الصغيرة تعبير عن قسم من الأمة . وهو وإن كان تعبيراً صحيحا صادقا إلا أنه ينقصه الإجماع أو الأغلبية المطلقة .

الوطن الإسلامي

إنني أعتبر الأرض الإسلامية وطناً واحداً بحدوده الشاسعة . وعندما أضطر إلى تتبع التقسيمات السياسية الموجودة الآن . أحس بالمرارة والألم . ولقد كان تاريخ الأمة الإسلامية في عصوره المختلفة . مرتبط الحوادث . متحد المشاعر . متوافق العواطف . مشتبك المصالح . متصل الأجزاء . ورغم ما اصطنعته السياسة من حدود . فأنت حين تسافر من الشرق الأقصى إلى المغرب الأقصى تمر بعدد من الدول وتتخطى مجموعة من الحدود . وتختلف عليك أشكال من الحكم . وقد تحس بما يعتمل في نفسية هذه الدول من عداوة وبغضاء . وحروب حارة أو باردة، ولكنك في كل ذلك تشعر أنك تعيش في أمة واحدة ربطت بينها العقيدة . التي وجهت قلوب أفرادها جميعاً إلى الإيمان بالله . ومحبة الأخوان في الدين . وتجد التاريخ الحقيقي لهذه الأمة التي تنبسط على أكثر قارات العالم . في وحدة الشعور والعاطفة والعقيدة والأمل . وفي طريقة التفكير والكفاح والعمل . وفي الاتجاه الذي يتجه إليه الأفراد والجماعات . وفي عدم اعتراف هذه الأمة بالحدود التي تفصلها عن بعضها . فتخترقها رغم حرس الحدود . والعقوبات المترتبة على ذلك.

إن تاريخ الأمــة يكمن في الأعمال اليومية من أفراد وطبقات هذه الأمة في وطنها العام ، بعيداً عن أحداث الدول ، هذه الدول التي تفرض سلطانها لتثبت قواعد حكمها ، وتقر دعائم نفوذها ، وتسـخر كل شـيء لإرضـاء شـهواتها ونزواتهـا، دون نظر إلى حقيقة الأمة أو مستلزمات الدين .

وحين يذهب بعـض المؤرخين يتحدثون عـن أعمال هذه الدول المختلفة ، حاسـبين أنهـم يتحدثون عن تاريخ الأمة الإسـلامية ، يغفلون عن حقيقة هامة ؛وهي البعد الشاسع بين ضمير الأمة وعقيدتهـا ، وعملها وأملها ، وبين مجرى الحوادث التي تجرى عليها تلك الدول المسـتبدة ، إن حقيقة تاريخ الأمة أعمق من أن يكون أعمالا تقوم بها دولة دون أن تسـتمد هذه الأعمال من حقيقتين ثابتتين : دين الأمة، ورأى الأمة الحق . وحتى في هذه الحالة لا يكون تاريـخ هذه الدولة تاريخا للأمة إلا إذا كانت الأمة كلها مجتمعة على اعتبـار هذه الدولة واعترافها بهـا ، وخضوعها لأحكامها ، خضوعا شـرعيا ، حسبما قرره الدين لتنظيم الدولة ، مع احترام كرامة الأمة سياسـياً ، واجتماعيا ، واقتصاديـا ، واحترام كرامة الفرد في سـلوكه مع الدولة والناس ، وفي سلوك الدولة والناس معه .

إنني حين أتحدث في هذا الفصل وفي هذا الكتاب فإنما أتحدث عن الأمة الإسلامية ، والدولة المسلمة ، وما حديثي عن الفراعنة في أسـطر سـابقة إلا مثل عابر ، سـقته لتوضيـح فكرة ... إن الحـروب التي قامت بـين الدولة الأمويـة والخـوارج ، أو بينها وبين الشـيعة ، أو بينها وبين الدولة العباسـية ، أو بين غيرها من الدول

التي تعاقبت على الحكـم ، أو تنازعت عليه في مختلف العصور الإسـلامية ، إن هذه الأحـداث الدامية لا تكون مـن تاريخ الأمة الإسـلامية ، لأن النـاس الذين اشـتركوا فيها كانـوا محمولين عليها، إما بالخوف ، وإما بالطمع . وإما بالتغرير ، فهم ينفذون إرادة واحدة ولذلـك اختلفت أنظار الأمة إلى القائمين بهذه الحركات . فأيدت كل قسـم من هذه الأقسـام طائفة من الناس ، من أجل الأغراض السـابقة . أما الأمة فهي تعرف أن تلك الحروب ليسـت لمصلحـة الدين ، وليسـت لمصلحة الأمة . وعلـل من ينطق برأي الأمة أسباب تلك الحروب فجعلها مرة (الثريد الأعفر) ومرة أخرى (بغلات معاوية الشهب) .

إن هـذه الحـوادث ، ليسـت تاريخ الأمــة ، فإن انتصـار الدولة الأمويـة على الخوارج ، أو قضاءها على ابن الزبير ، أو تغلب الدولة العباسـية على الدولة الأموية ، أو تغلب أية دولة مسـلمة على دولة أخرى مسلمة ، لا يحسب مجداً للأمة المسلمة ، أو حقيقة مـن تاريخها ، فإنـه ليس من تاريخ الإسـلام ، ولا من تاريخ الأمة المسلمة ، ولا مما يحسب مجداً للإسلام ، أن يقضي بنو أمية على الخوارج والشيعة ، ولا أن ينتصر بنو العباس على بنى أمية ، ولا أن ينتزع بنو فاطمة كراسي الحكم من بنى العباس .

إن هذه الصور وأشـباهها قد تكون صـوراً من تاريخ رجال بنى أميـة ، أو بنـى فاطمـة أو الخوارج أو ابـن الزبير ، أو بنـى العباس ، ولكنهـا ليسـت بحال من الأحـوال صورة من تاريخ الإسـلام ، أو تاريخ أمة محمد عليه صلى الله عليه وسلم .

إمـا هذا العـدد الوفير من الناس ، الذيـن تتكون منهم الأداة الحاكمـة ، كالأمراء والـوزراء والقواد والأعـوان والأجناد في الدول المسـتبدة ، فهؤلاء لا يكونون جانباً من الأمة ، وإنما هم عبارة عن جهـاز آلي ليس لـه إرادة ، ولكنه يتحرك بإرادة الحاكم المسـتبد ، سواء كان هذا الحاكم فرداً أو هيئة . إنهم عبارة عن صاروخ موجه ، يبعث به الحاكم للتدمير متى شـاء ، ولن يدخل ضمن آلات هذا الصـاروخ البشـرى ، إلا خائف ، أو طامـع ، أو مخدوع ، بالعقيدة ، أو المذهـب ، أو الشـعار ، وإلا فما هي مصالـح الأمة في نقل أداة الحكم من بنى أمية إلى بنى العباس ، أو بنى فاطمة ، أو بنى تميم ، أو غيرهـم من القبائل والأجناس ، وفيـم يندفع آلاف من الناس ليحطموا بنى أمية، أو يحطموا الحسـين ابـن علي ، أو يحطموا بنى العباس ؟

وهب أن شـخصا أراد أن يجرى تصفية على آلات هذا الصاروخ الذي تسـتعد دولة من الدول المسـلمة ، لتضرب بـه دولة أخرى مسـلمة ، فأخرج منـه كل من دخل فيه بالخـوف ، وكل من دخل فيـه بالطمع ، وكل من دخـل فيه بالخديعة والتغرير، حين صورت له الحقائق على ما هي ليسـت عليه . هب أن شـخصاً فعل ذلك فهل يبقى هذا الصاروخ صالحاً للعمل ؟ وهل يبقى من هذا الجند شـيء يسـتحق أن يطلق عليـه كلمة الجيش ؟ ويمكـن أن يدخل معركة مهما كانت هذه المعركة صغيرة ؟ إنه لن يبقى بالتأكيد إلا اليد التي تمسك بزر الصاروخ ، وهي تضغط على فراغ .

والحقيقة التي أرمي إليهـا من هذا البحث الطويل ، أن تاريخ الدول الإسـلامية التي تعاقبت على الحكم ، والتي تنازعت عليه

، والتـي اقتسـمته ، إن تاريـخ هذه الـدول ليس هـو تاريخ الأمة الإسـلامية ، لأن تاريخ الأمة الإسـلامية إنما ينبـع من ذاتها ومن نفسـيتها ومن الأعمال التي تصدر عنها برغبـة ورضا واقتناع ، دون تخويـف أو تطميع أو تغرير. أما تاريـخ الدول والأمراء والحكام فهـو تاريخ أفـراد لا يمثلون أمة ، بل كثيراً مـا يكونون أبعد الناس عن الأمة وسيرتها .

ولمـا كانت الأمة الإسـلامية أمـة لها دين ، وضـع لها نظماً كفيلة بإسعاد الإنسـانية ، مجتمعاً وأفرادا ، وهذا الدين يساوى في الحقوق والواجبات بين جميع أتباعه ، من السـلطان أو صاحب الحكـم ، إلـى أدنى رجل من الأمة ، فإن أولئـك الذين يخرجون عن هـذا المنهـاج ، وينافقون عن أمـر دينهم ، ويحيدون عن سـبيله ، لا تحسـب أعمالهـم على الأمة ، ولا يوضـع تاريخهم في مقام تاريخها ، لأن مسلك الأمة بيّن ، وتاريخها واضح ، وسلوكها على العموم جار في الطريق الذي اختارته إرادة الله ، ليؤدى بهذه الأمة إلى السـعادة . السـعادة التي يعلم حقيقتها خالق الإنسان ، لا السراب البراق الذي ينخدع به بصر الإنسان .

إن الله قـد أختـار لأمـة محمـد الإسـلام دينـاً ، وأوجب على الدولـة وأداة الحكـم فيه قانونا ، فما سـارت على ذلـك القانون فهـي من الأمة ، وتاريخها وعملها ومجدهـا للأمة، وإذا انحرفت بها الشـياطين عن سـبيل الله ، فحسبها متاع الحياة ، وما متاع الحياة إلا غرور .

ولعل أوضـح صورة لهذه الفكرة هي واقع الأمة الإسـلامية

في هذا العصر ، هذه الأمة التي تنتشر على أفريقيا وآسيا وأوربا ، وتاريخ هذه الأمة هو مجموع سلوك أفرادها وطوائفها ، تلك الأعمال التي تنبعث في كامل الوطن العام . أما الأعمال التي تقوم بها هذه الدول المتناثرة في كثير من بقاع الوطن الإسلامي فليست من تاريخ الأمة . إنها تاريخ رجل ، أو رجال ، وصلوا إلى كراسي الحكم بوسيلة من الوسائل ، ومنهم من هو أبعد الناس عن فهم حقيقة الأمة ، وحقيقة مشاعرها ، وحقيقة أعمالها ومطالبها ، ومع أن الأمة وحدة لا تتجزأ ، فإن أولئك الذين يتولون الحكم ، ويحسبون أنهم أقاموا دولا ، لا ينفكون يقيمون الحدود بين أجزاء الأمة ، ليصنعوا منها أمما مختلفة : هذه عربية ، وهذه تركية ، وهذه فارسية، وغيرها ، ولم يكتف أصحاب المطامع والاستعمار حتى هذا ، فذهبوا إلى تقسيمها دويلات صغيرة جعلوا منها ممالك وجمهوريات .

إن هذا الشعارات الزائفة ، وهذه المبادئ الضالة ، أبعد ما تكون عن الإسلام، وعن تاريخ الإسلام . إنها جوانب من تاريخ أولئك العدد القليل من الناس ، الذين نادوا بها ، وفصلوا بين أبناء الأمة الواحدة ، والدين الواحد ، ليحققوا لأنفسهم شهوة السلطة ، وشهوة المتعة ، وشهوة المال .

ومن الأخطاء التي أوحى بها الاستعمار ، فتلقفتها آذان السياسيين من هذه الأمة ، فانطلقت بها ألسنتهم وأقلامهم : كلمة الصداقة والأخوة تزج بها بين هذه الدويلات المسلمة ، القائمة على قطع من الوطن الإسلام ، فيقف الخطيب منهم أو السياسي وهو يحسب أنه أوتي فصاحة سحبان حين يقول :

الدول الشقيقة، والدول الصديقة ، وهو يقصد بالدول الشقيقة :الدول التي تحكمها هيئة عربية أما الدول الصديقة فقد يكون من بينها أعدى أعداء الأمة ، وكم أتألم وأنا أسمع خطبا من أولئك الذين يقدر فيهم فهم القضية الإسلامية فهما صحيحا ، حينما تجوز عليهم هذه الخدعة الاستعمارية ، فتجدهم وهم يتكلمون عن الجزائر (2) ، أو عن فلسطين ، أو عن الكويت ، أو موريتانيا ، فيعبرون عنها بهذه الكلمة التي لقنها الاستعمار لأتباعه – الدول الشقيقة – حتى يقرر في أذهان الناس ، أن كل دولة من هذه الدول حقيقة قائمة بنفسها ، قد يربطها بالدولة الأخرى ، علاقة القرابة أو الصداقة ، أو المصلحة ، ولكنها مع ذلك شيئان منفصلان ، وتقطيع الأمة المسلمة إلى أشلاء متناثرة ، هي أعظم غاية يسعى إليها الأعداء بكل ما أوتوا من فكر ومكر .

إن الكتاب الكريم ، يقرر أن الأمة الإسلامية أمة واحدة في إندونيسيا وتركيا وإيران والباكستان والجزيرة العربية ومصر والمغرب الأقصى وما بينها ، فقال : (إِنَّ هَـذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً) .

أما قوله تعالى : (إِنَّمَـا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) فالمراد به _ والله أعلم – أن الأخوة هي العلاقة التي تربط بين أولئك الذين أتصفو بالإيمان في جميع مراحل التاريخ ، إن المؤمنين في هذا العصر إخوان للمؤمنين الذين سبق بهم الزمن والذين سيأتون مع الزمن المقبل (رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي

2 - كتب هذا الفصل قبل أن تتحرر الجزائر ، لكن طبع الكتاب تأخر لأسباب خارجة عن إرادة المؤلف .

قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا) .

ولعل حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم يوضح هذا المعنى أتم توضيح . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (وددت أنني أرى إخواني . فقال بعض أصحابه رضي الله عنهم : أو لسنا بإخوانك يا رسول الله ؟ فقال علية السلام ؟ أنتم أصحابي . وإنما إخواني قوم يأتون من بعدى . يؤمنون بي ولم يروني) أما قوله صلى الله عليه وسلم : (ترى المؤمنين في توادهم وتراحمهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى سائر الجسد بالسهر والحمى) فهو نص في هذا المعنى . ولا يوجد أي دليل على قصر معناه على الأفراد دون الدول .

إن المؤمنين الموجودين في عصر من العصور قوة مندفعة لأداء الرسالة التي أناطها الله بهم . وليست العلاقة بينهم علاقة الأخ بأخيه يحسن إليه ويهاديه وكل منهم مقيم في منزله . ولكن العلاقة بينهم هي العلاقة التي تربط جماعة تشترك في القيام بواجب . يسأل عنه كل فرد منهم . ولذلك فليس من الحق أن تعتبر قضية الجزائر للجزائر . وقضية فلسطين لفلسطين . وقضية إندونيسيا لإندونيسيا . وقضية ليبيا لليبيا مثلا . إن هذه القضايا وغيرها من القضايا . هي قضية الأمة المسلمة . الأمة الواحدة . التي تمتد من الشرق الأقصى إلى المغرب الأقصى .

وهذه الجهود الضعيفة التي تقوم بها هذه الدول لتساعد إحدى قضايا الأمة في جانب آخر . أو دولة أخرى . في صورة مبالغ من المال تجمع من تبرعات الأفراد . أو في خطب رنانة تلقى في

مجتمعات حافلة . أو كلمة حماسية على منبر هيئة الأمم . إن هذه الجهود الضعيفة ليست هي ما يطلب من هذه الدولة . أو من هذا القسم من أقسام الأمة .

إن هذا التصرف يدل على أن هذه الدولة التي تقدم مساعداتها على هذا النحو مقتنعة بأن الجزائر . أو فلسطين أو غيرها . حقا شقيقة . لها من الحقوق ما للأشقاء . مواساة في المصيبة . ومشاركة في الفرح . وصدقة عند الحاجة وما أشبه ذلك . ويظهر أن الناس مقتنعون بأن هناك فرقا بين الواجب على أبناء فلسطين في مدافعة إسرائيل . وبين غيرهم . وهذا الاقتناع خطأ كبير في حقيقة الأمة المسلمة . إن ما كان يجب على سكان الجزائر في محاربة فرنسا هو الواجب على بقية البلاد الإسلامية والدول الإسلامية . لو أنها آمنت برسالة الله وعملت بها . وما يجب اليوم على الفلسطيني في مدافعة إسرائيل . واستخلاص الحقوق منها . هو ما يجب على كل مسلم في كل قطر من أقطار الإسلام . وإنه لحق على الدول المسلمة أن تعرف هذا الواجب . وأن تعمل له . وأن تنظم سير الأمة لتحقيقه . ورسول الله صلى الله عليه وسلم حين ضرب مثلا للمؤمنين بالجسد الواحد لم يقل ذلك عبثا . وإنما أراد أن يقرر أن المؤمنين في كل عصر من العصور حقيقة واحدة . في آمالهم وآلامهم وأعمالهم . وأنه لا يحق لأي واحد منهم أن يعتبر نفسه منفصلا عن الباقي وأنه يقدم له مساعدات .

إن ما قدمته الدول العربية والإسلامية للجزائر وفلسطين وهي تحسب أنها تقدم إليها مساعدات إنما كانت تقوم بواجبها

ولكنه قيام هزيل لم تبرهن فيه أية دولة من هذه الدول أو قسم من أقسام الأمة أنها فهمت حقيقة واجبها وأدركت أنها تتساوى في هذا الواجب مع من تساعده وتقدم إليه الإعانة . وما أسخف الإعانة حين تكون عبارة عن كلمة ينثرها لسان ، أو مال تجمعه يدان من عواطف الناس .

يظهر أنى أطلت في هذا الفصل وساقني الحديث إلى جوانب لم أكن قدرتها في نفسي ، ولذلك فها أنا أعود إلى تقديم هذه العصور من تاريخ الأمة في جزء من الوطن الإسلامي .

هذه الصور التي أعرضها عليك في هذا الكتاب الصغير ، هي بعض الجوانب من تاريخ الأمة ، وهي صور من تاريخ الأمة الحقيقي ، لأنها أعمال لأفراد من الأمة ، لم ينحرفوا عن سبيل الله إلى سبيل الشيطان ، ولم تسقهم شهوة عارمة ، أو تغرهم ثروة غالية . ومن هذه الصور وأشباهها يتكون التاريخ الحقيقي للأمة المسلمة .

إن تاريخ الأمة الإسلامية يتضح :

في هذه القوى المسخرة لنشر العلم ، وإصلاح المجتمع ، وإنارة الطريق أمام السالكين بوحي العقيدة والضمير ...

في هذه الجهود المبذولة لبناء مجتمع مسلم ، على أسس سليمة ، وضعها الدين الحنيف لإسعاد البشرية ...

في هذه الأعمال المتواضعة للحياة الحرة الكريمة ، البعيدة عن الارتزاق ، والمتاجرة بمصالح الناس ...

في هذه الثورات المتتابعة على الظلم والطغيان في مختلف صوره وأشكاله .

في هذا الرباط المتين الذي يربط جميع المؤمنين بالحب ، ويقودهم بالإيمان الخالص إلى العبودية لله وحده ، وإقامة الحرية والعدل والمساواة على النظام الذي أقامته الشريعة السماوية للإنسان ...

في هذا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، الذي يقوم به المؤمنون الأمناء لنشر الفضيلة والقضاء على الرذيلة في مجتمع نظيف ...

في هذه الدعوة الحارة إلى الإيمان بالله ، التي يراها المؤمنون أوجب واجب عليهم ، فلا ينفكون عنها أينما كانوا ...

في هذا الانبعاث الفردي الذي يرمي إلى أداء الرسالة ، هذه الرسالة التي يحس كل مؤمن صادق الإيمان أنه مسؤول بين يدي الله عن أدائها ...

في هذا الكفاح المتواصل إلى الارتفاع بالبشرية عن الأوضار والدنس والمادية الجافة ...

هذه الصور وأشباهها ، مما يقوم به الأفراد أو الجماعات أو الطوائف ، هي حقيقة التاريخ الإسلامي .

أما تلك المواكب الفخمة ، وتلك القصور الشاهقة ، وتلك الجواري الحسان، وتلك الأموال المكدسة ، وأولئك الجنود المتهيئون للقتل والتخريب في أية لحظة ، هذه الصور وأشباهها ، وهذه

الدمـاء المسـفوكة ، والحـرم المنهوكـة ، والـرؤوس المقطوعـة ، والأمـوال المنهوبـة ، والمتـع المتاحة لأفراد معينـين ، هذه الصور وأشـباهها ليسـت من تاريخ الأمة . إنها صور مـن تاريخ فرد ، أو أفراد ،يشـتركون مع ذلك الفرد فيها ، إما لأنهم وسيلة الوصول ، أو لأنهم آلة الوصول ، وسواء كانوا وسيلة أو آلة فهم لا يكونون جانبا من الأمة .

وإن أملنـا فـي الله قوي أن يفتـح باب الهدايـة لأمة محمد فيعتبـرون بماضيهم وحاضرهم ، فيوحـدون صفهم ، ويجمعون كلمتهـم ، وينظفون قلوبهم مـن غير ، ويطهرون عقائدهم من آثار الفلسفة البشرية ، ويصرفون عن أفكارهم مجاراة أعداء الله في الفسوق عن أمر الله ....

كان أبو مسـور يَصْليتَنْ النفوسّـي يتحدث مع بنته الطالبة الذكية ، بعد أن غسـلت له ثيابه ونشرتها في الشمس لتجف ، قال أبو مسور : أتمنى أن ينقي الله قلبي مثل هذه الثياب . فقالت البنـت الذكية المتعلمة المؤمنة ؛ وددت أن الله جعل تطهير قلبي بيدي حتى أنقيه وأرسله إليه . فقال الشيخ : إنك أبلغ مني حتى في الأمان.

والمسـلمون ما لم يطهروا قلوبهم من غير الله ، وما لم يبنوا أعمالهم على الأسـس السـليمة التي أوضحها ديـن الله ، فإن سـيرهم سيبقى متعرجا ، وأمامهم بعيداً ، واتجاهاتهم متفرقة متباينة ...

وأنـي أسـتغفر الله من الخطـأ والزلـل ، وألجأ إليـه تعالى أن

يعصمنـي من الشـيطان ، وأن يطهر قلبي بالإيمـان ، من الحقد والحسد والشهوة والغضب والعصبية ....

علي يحيى معمر

منهج الدراسة

عزيزي القارئ ، يسرني أن أضع بين يديك المنهج الذي اتبعته في هذا الكتاب، حتى يتيسر لك السير مع خطواته ، لتتضح لك الصور التي أردت أن أقدمها إليك في إطاراتها الواسعة ، وفي إمكانك أن تراها كما يأتي :

* صورة لارتباط الدولة بالأمة .

* " لتماسك الأمة المسلمة في وطنها الواسع رغم الخلافات السياسية والمذهبية .

* صورة مصغرة لدخول المذهب الإباضي إلى ليبيا على يد دعاته الأولين .

* صورة للمذهب الإباضي وهو يقود الأمة الليبية بنظام الإمامة الكبرى المستقلة عن أية تبعية .

* صورة للمذهب الإباضي يرعى الأمة الليبية بقيادة عمال ليبين ، يتبعون الإمامة الرستمية .

* صورة للمذهب الإباضي يرعى الأمة ، بقيادة أمراء يختارهم ، مستقلين بأنفسهم .

تجد أيها القارئ الكريم هذه الصور حسب هذا الترتيب ، في القسم الأول من هذه الحلقة ، أما في القسم الثاني منها فتجد الصور الآتية :

* صورة للكفاح العلمي بعد الفتح الإسلامي ، بإلقاء الدروس ، ونشر المعرفة

الإسلامية ، وتأسيس المدارس ، وتكوين البعثات العلمية .

صورة لازدهار المعارف الإسلامية ونظم التعليم وطرق التربية التي وضعت لتكوين أجيال من المؤمنين المعدين لحمل الرسالة الإسلامية .

* صورة للمنطقة التي عاش فيها المذهب الإباضي ولا يزال يعيش منذ تكونت له الإمارات الخاصة به .

* صورة للمرأة في المجتمع الإباضي .

* " لأحداث تاريخية مشابهة .

* " للمؤمنين المتعصبين الذين تتحكم فيهم رواسب من الدعاية المغرضة.

* صورة للمجتمع المسلم النظيف .

هذه صور تشتمل عليها الحلقة الثانية من الكتاب في قسميها ، أرجو أن تساعد القارئ على فهم المنهج الذي اتخذته.

وهناك في الكتاب ملاحظة أخرى أرجو أن ينتبه لها القارئ الكريم ،وهي أنني قد تجوزت في استعمال كلمة ليبيا في كثير

مـن مواضيع الكتاب ، وأنا أعنـى أغلب إقليم فزان ، وأغلب إقليم طرابلـس ، فإن برقـة لم تكن في يـوم من الأيـام تابعة للحكم الإباضـي ، لا في دور الإمامات التـي تكونت في طرابلس ، ولا في دور تبعيتها للدولة الرسـتمية ولا فـي دور الحكومات المحلية التي كانـت غالباً في بعض جهات من جبل نفوسـة ، أو بعض جهات فزان .

دخول المذهب الإباضي إلى ليبيا

إن سـريان الأفكار والآراء والعقائد من بلد إلى بلد ، أومن قطر إلى قطر ، لا يمكن أن يؤرخ بالتحديد الزمني ، فهي تتسرب تسرباً تدريجيـا ، قد يبطئ وقد يسـرع ، من فرد إلى فـرد ، حتى تتغلب وتنتشـر ، وعلى هذه الطريقة نفسها دخل المذهب الإباضي إلى ليبيا .

بـدأ المذهب الإباضي يحـرر آراءه وعقائده فـي أواخر النصف الأول مـن القـرن الأول الهجـري ، ولـم يتم النصـف الثاني من هـذا القرن حتـى كانت الأصول التـي تميزه عن غيـره من الفرق والمذاهب قد تقررت ، ففي البصرة التي كانت من مراكز الإشعاع الإسـلامي ، عاش إمام المذهب ، التابعي الكبير ، جابر بن زيد ، ما بين سنتي 22 , 96 هـ .

ومن هذا المركز الإشـعاعي ، ومن البؤرة التي كان يسـتضيء بها هذا الإمام ، امتد النور إلى مختلف البلاد الإسلامية ، بصورة تدريجية بطيئة ، على طريقة العقائد التي تحارب الباطل بالحجة

لا بالقوة ، وتتسـلح بالحق لا بالسيف ، ويعتنقها الناس بالاقتناع لا بالخوف .

ولعـل التسـامح فـي معاملـة المعتديـن مـن المسـلمين ، والبسـاطة فـي مظهر السـلطة والحكم ، والوضـوح في الرأي والعقيـدة ، والصراحة في قول الحق والعمل به ، والاستمسـاك بالواضـح من دين الله ، كانت من الأسـباب التي سـاعدت على انتشار المذهب الإباضي في أكثر البلاد الإسلامية .

وفـي ذلـك الحـين ، الـذي كان فيـه المعتزلة يشـغلون أوقات الناس بالجـدل ،وكان الأزارقة ومن ذهـب مذهبهم ينطلقون في الأوسـاط الإسلامية المسـالمة ، يبتزون الأموال ، ويقتلون الرجال ، ويستحلون سبى النسـاء والأطفال ، وكان الشيعة عاكفين على وضع الأحاديث في فضائل بنى هاشـم ، وتحبيـر الخطب البليغة على لسـان على بـن أبي طالب ، والتغنى بعصمـة أهل البيت ، وكان أهل السـنة والجماعة (3) مـن أتباع معاوية منهمكين في مكافحة ثورات الخوارج وابن الزبير

وغيرهـا ، وفي التقاط العيوب ، وتلفيق الأكاذيب ، لتكون مادة السب واللعن لعلي بن أبي طالب، في خطب الجمعة .

فـي هـذه الأحـوال كان الإباضية ومـن جرى هـذا المجرى من التابعـين وتابـع التابعـين يدعون إلى ديـن الله في هـدوء واتزان . لا يصخبـون صخب المعتزلة حباً في الظهـور ، ولا يحاربون حرب

3 - جعل معاوية سب على بن أبي طالب على المنابر سنة . وسمي أتباعه أهل السـنة ولما تنازل الحسـن عن الخلافة زاد لفظ الجماعة فسـماهم أهل السـنة والجماعة

الأزارقة ، بالخطأ في تأويل كتاب الله ، ولا يفرطون إفراط الشيعة ، استغلالا للعاطفة الدينية ، ولا يكذبون كذب بنى أمية ليقيموا الدولة ، ويحفظوا الملك .

وبهـذه الـروح المؤمنة التي تضع كتاب الله جل جلاله وسـنة نبيـه عليه الصلاة والسـلام بين عينيها ، تدعـو إليهما متجردة عـن عواطف الحب والبغض في غيـر الله . عازفة عن زخرف الدنيا وبهرجهـا ، متأكـدة من معنـى آيات كتاب الله فـي التفريق بين المسلمين والمشركين ، معرضة عن حب الظهور الذي يسعى إليه المعتزلة جاهدين كان الإباضية يعملون .

وذهبت هذه الدعوة المعتدلة التي لا تحيد عن منهج الإسـلام في البلاد دون جيش أو سيف أو مال ، فانتشرت في العراق والجزيرة العربيـة ، ثم امتدت إلى مصر، ومن مصر دخلت بهدوء إلى ليبيا وما بعد ليبيا من المغرب الإسلامي الكبير .

ولكن اتصال هذه البلاد من الوطن الإسلامي بمصدر الإشعاع في البصرة ، كان بعد ذلك يتم رأساً بين كل قطر من هذه الأقطار والبصرة ، ولم تمض عشـرون سنة من القرن الثاني الهجري حتى كان المذهـب الإباضي منتشـراً فـي ليبيا وتونـس والجزائر ، كما انتشر في العراق والجزيرة العربية وعُمان .

سَلمة بن سَعد

رجـل امتلأ قلبه إيماناً بـالله ، ووعى عقله القـوي ما دعا إليه الكتاب الكريم ، واتسـع فهمه الذكي لما دعا إليه رسول الله صلى الله عليه وسـلم ، فأستحوذ على نفسه وحسه وجوارحه اليقين

بديـن الله ، فانطلق يدعوا إلــى الله ، لا يقيم الدنيا وما فيها وزناً، ولا يحسب للناس وأعمالهم حسابا ، ولا يخشى للتعب والمشقة عاقبة . ولا ينظر إلى المعارضة إلا على أنها عوارض تعترض طريق المؤمن فيجب عليه أن يتخطاها .

قلبه عامر بالله وحده ، فلا يتردد لأي أثر من مخلوق ، وجسـده بما فيه من قوى مادية وروحية مسخر للدعوة إلى الله ، لا يفتر ولا يلين ولا يتوقف .

انطلق من جزيـرة العربية إلى إفريقيا وحيداً منفرداً ، يقتحم المجاهل ويدخل القفار ، ويغشى المجتمعات التي لا تعرف له جنساً ولا لغـة ، وليس له من سـلاح في كل ذلك إلا ذلـك الإيمان الذي عمر به قلبه ، وتلك المعرفة الشاملة لكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسـلم ، وسيرة السـلف الصالحين من الصحابة والتابعين ، ولم يمض عليه عشر سنوات حتى كانت دعوته تنتشر ما بين تلمسان وسرت ، وحتى كان المذهب الإباضي مذهباً لأغلب السكان في ليبيا وتونس والجزائر .

كان يقـول في مبدأ أمره وددت أن يظهر هذا الأمر يوماً واحداً فما أبالي أن تضرب عنقي .

وقد تحقـق أمله في الله في مدة لم يكـن يتصورها ، وأصابه من التوفيق ما يضيفه الله على الأخيار من خلقه ، الذين تعدهم الأقدار لتبليغ رسالة الله بعد الأنبياء عليهم السلام فينطلقون بالدعوة صافية كما كانت في عهد النبوة ،خالصة من الشوائب والبدع والخرافة .

كان سلمة بن سعد ينتقل بين بلدان شمال أفريقيا من جهة إلـى جهة لا يعتمد على جيش ولا حـرس ولا رفيق ، ولم يصحبه فـي تلك الرحلات الطويلة من الجزيرة إلى العراق ، من العراق إلى أفريقيا ، إلا إيمانه بصحة العقيدة وصفاء الفكرة، وسلامة الدعوة ، ومعرفة واسعة للإسلام وأسراره . وكانت هذه المميزات هي التي فتحت القلوب والعقول لدعوته وتقبلتها بقبول حسن .

وقـد اسـتطاع أن يوصل الدعوة إلى الأماكـن التي لم تصل إليهـا ، وأن يوجه إفهام النـاس إلى تفهمهـا ، وأن يوحد بينهم في الاتجاه العملي ، حتى اسـتطاع أن يكون منهم بعثة علمية توجهت إلى البصرة مركز الإشعاع في ذلك الحين .

وقـد اسـتطاع أن يجعل أعضاء هـذه البعثـة العلمية من أماكن متفرقة ، بعيدة عن بعضها ، حتى يكون كل واحد منهم نبراسـا يهتدي به في جهـة من الجهات ، وحتـى يعملوا جميعاً على توحيد جهود الأمة ، وتوجيهها إلى الخير العام . ونجح سلمة في إرسـال هـذه البعثة ، ونجحت هذه البعثـة التي أطلق عليها " حملة العلم إلى المغرب " في دعوتها والقيام برسـالتها . وكان من أعمالها ما سوف تقرأ بعضه في حلقات هذا الكتاب .

لقد كان سـلمة بن سـعد بطلا من أبطال الإسلام ، وداعية مـن دعـاة الحق والكرامـة ، يتصـف بجميع الصفـات التي تلزم الداعية ، من معرفة كتاب الله وأسراره ، واستقامة على دين الله ومنهاجـه ، وتخلق بآداب الإسـلام وفضائله ، ووضوح في المنطق ، وسـلامة فـي التعبير ، وقوة في الحجـة . كان مؤمناً من أخلص

المؤمنين لدين الله . فجزاه الله عن جهاده وكفاحه خير الجزاء .

ابن مَغْطير الجَنَّاوني

كان سكان ليبيا قبل الفتح الإسلامي . إما وثنيون يعبدون الأصنام . وإما نصارى يتبعون المسيحية المحرفة . فلما بلغت الدعوة الإسلامية ليبيا . في بساطتها ووضوحها وصراحتها . وهدايتها بالحق وإلى الحق . وتقريرها لعلاقة الإنسان بالإنسان .وعلاقة الإنسان بخالق الإنسان . على مبدأ تساوي بني آدم في حقوق البشرية والعبودية لله وحده . اعتنقها الناس لهذا الأسباب . حينما قارنوا الحق الواضح فيها بالأباطيل التي كانوا يتبعونها، ولما كان حاملو الدعوة جيوشاً مهمتها الفتح . والجيوش الفاتحة لا تجد الوقت الكافي لنشر الثقافة الإسلامية الواسعة . لذلك فقد تكونت حركة البعوث العلمية إلى المشرق .

لقد جاء سلمة بن سعد في أوائل القرن الثاني . يدعو الناس إلى التمسك بدين الله . وعدم الانصياع لعبدة الأهواء . وطلاب الدنيا . والانخداع لأصحاب البدع . تلك البدع التي ضل بها ناس عن صراط الله السوي . وأضلوا بها .

وفي هذا الوقت الذي كان فيه هذا المؤمن الداعية يكافح من اجل المحافظة على صفاء دين الله وسلامته من الأهواء والانحرافات والبدع . في هذا الوقت كان بطل آخر من أولئك الأبطال الذين يملكون إرادة أقوى من الزمن . وعزماً أشد من مصائب الحياة . كان هذا البطل قد قطع المسافة العلوية بين جبل نفوسة والبصرة في العراق . ليغترف العلم من منبعه

الصافي : أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة . وزملائه في البصرة . في ذلك المعمل الذي أسس في ظاهرة لإنتاج القفاف. وفي الحقيقة لإنتاج الدعاة من حملة دين الله المخلصين . فأنتج رجالا كانوا مثلا أعلى للأسرة المسلمة . في صحة العقيدة . والتمسك بالدين . والفهم الحق لرسالة الإسلام . والتخلق بأخلاق سيد المرسلين . ومن اهتدى بهديه من المؤمنين المتقين .

هذا البطل الذي أتحدث عنه : هو العلامة محمد بن عبد الحميد بن مغطير الجناوني . فعندما كان الداعية سلمة بن سعد يكافح لتكوين بعثة علمية من أنجب الطلاب . كان ابن معطير يغترف العلم من منهله العذب .

ورجع إلى وطنه قبل أن تسافر البعثة العلمية التي كونها سلمة بن سعد . والتي كان لها شأن هام في ليبيا . شأن في نواحي الحياة المختلفة . ناحية السياسة . وناحية الدين . وناحية المجتمع .

يبقى ابن مغطير في التدريس والفتوى . حتى تخرجت البعثة العلمية في البصرة . ورجعت إلى المغرب الإسلامي . باسم " حملة العلم إلى المغرب " فامسك ذلك العلامة البطل عن الفتوى . معتذرا بأن حملة العلم أولى بالفتوى . لأنهم أخذوا عن الإمام بعد أن حرر جميع الأقوال .

إن ابن مغطير هو أول ليبي فكر في تكوين البعثات العلمية . ونفذ الفكرة في نفسه وتبعه الآخرون .

والوطن الليبي بل المغربي مدين لهذا الجندي المجهول الذي

يقطع هذه المسافات الطوال من ليبيا إلى العراق في ذلك الزمن الذي يعسر فيه الانتقال . منفرداً وحيداً، يحمل مشعل العلم والنور إلى وطنه ، حتى يستنير به أبناء هذا القسم من الأمة العظيمة في هذا الطرف من المملكة الشاسعة التي لم تتح لها ظروف الفتح أولا ، والثورات الحمقاء المجنونة ثانيا – لم تنجح لها هذه الظروف غير المستقرة أن تهتم بقضية العلم والتعليم ، التي هي أهم رسالة يدعو إليها الإسلام ويطالب بها بنيه .

ومع هذا الجهود الجبار الذي يبذله هذا البطل لخدمة الأمة وإعلاء كلمة الله ، يمر عليه التاريخ فلا يشير إليه إشارات عابرة كما يشير إلى أي شخص عادي . ومع ذلك فالرجل راض عن هذا الموقف من التاريخ ، ونحن أيضاً راضون له بهذا الموقف من التاريخ، لأنه عندما كان يقدم على ألوان الكفاح ، واقتحام العقبات والصعاب ، لم يجعل في عمله حسابا للتاريخ ، أو لرأي الناس فيه ، أو لمدح المحبين ، ونقد المبغضين . لقد كان عمله خالصاً لله ، وقد علمه الله ، وعنده وحده يكون الجزاء .

ومهما يكن ، فقد فتح الطريق للبعثات ، واستجاب لأمر الله ، حين أوجب على طائفة من المسلمين أن يتفقهوا في الدين ، لينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم ، وربط الصلة بين مشرق الأمة ومغربها ، ودعا إلى تطبيق أحكام الله ، وتنفيذ أوامره ، حسبما كان معروفاً في زمنه صلى الله عليه وسلم وفي زمن الخلفاء الراشدين ، وكان شديداً في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقافا عند حدود الله ، لا يتدخل فيما لا يعنيه ، ولكن عندما يجترئ مجترئ على الحق يقف له موقف المؤمن الغيور الذي لا

تأخذه في الله لومة لائم .

وقد بارك الله في عمره ، فامتدت به الحياة إلى أن جاء الإمام عبد الوهاب إلى جبل نفوسه ، فكان يحضر مجلسه على كبر سنه . ولعل في الحادثة الآتية مثلا رائعاً لمن أراد أن يقتدي بأعلام الإسلام وأدبهم في إقامة الحق واتباع دين الله : ارتفع رجلان في خصومة إلى الإمام عبد الوهاب ، فاستردد الإمام المدعى عليه الجواب ، ولكن الرجل اعتز بالإثم ولم يجب الإمام ، فسأل الإمام عن ابن مغطير ، فأجيب بأنه غير موجود ، فقال للخصمين قوما إلى غد ، ورجع إليه الخصمان في اليوم الثاني والثالث ، فكان موقفهما منه مثل موقفهما في اليوم الأول . وفي اليوم الرابع عندما تخاصما من جديد وطلب الإمام إلى المدعى عليه أن يجب فلم يجب ، سأل الإمام عن ابن مغطير ، وكان بناحية من المسجد ، فما أتم الإمام سؤاله حتى وثب ابن مغطير – وكان شيخاً طاعناً في السن – على الممتنع ، فوطئه بركبته ، ولم يتركه حتى استغاث بالإمام وأذعن للحق .

وفي القصة مثل رائع عن خلق هؤلاء الأئمة وأدبهم ، هؤلاء الأئمة الذين لا يرتفعون عن الأمة ولا يحتجبون عن أفراد الشعب ، ولا يتخذون قصوراً دونها حرس وحجاب ، وإنما كانوا يجلسون في المساجد كما يجلس أي مسلم ، وهم يتولون شؤونها ، وينظمون أمورها ، ويفصلون مشاكلها بروح الإسلام الذي يفصل بين الناس بالعدل لا بالقوة ، وبالحق لا بالغطرسة ، وبالبساطة لا بالتبجح والدعوى .

وفي القصة مثل آخر رائع ، ضربه ابن مغطير ، هذا الشيخ الهرم ، الذي حضر دروس أبي عبيدة قبل أن يحضرها أبو هذا الإمام ، وامتدت به الحياة حتى رأى هذا التجني على الحق والاستكبار عن أمر الله ، وإساءة الأدب أمام أمير المؤمنين ،فأردا أن يعلم الحاضرين في المسجد أن القوي أمام الحق ضعيف ، وأن الضعيف إذا كان في جانب الحق قوي . بل أراد أن يعلم أولئك الحاضرين أن الحقوق لا تعطل لاستكبار المستكبرين ، واعتزاز الآثمين بالإثم ، فإذا خطر لأحدهم أن يقف هذا الموقف ، وجب على أولئك الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر أن يتناولوه بالشدة وأن يعلموه بالأدب .

أما العبرة الثالثة التي تستخلص من هذه القصة ، فهي هذا الاحترام العظيم الذي يسبغه الإمام العظيم على العالم العظيم . إن عبد الوهاب لم يتوقف عن تأديب هذا الشخص خوفاً منه ، ولا جهلا بأحكام الله ، ولا تساهلا في دين ، ولكنه أدب طبع عليه ، وتقدير لهذا العلامة الذي يجب أن يستشعر كل مسلم في ذلك الحين عظمته وطموحه ومحبته لدين الله ، وكفاحه من أجل العلم .

إن ابن مغطير ، هذا الرجل الذي جاب الآفاق طلبا للعلم ، وعاش للتدريس والفتوى ، ثم حمل أمانة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لمثلٌ حي يجب أن يقتدي به المؤمنون ...

كفاح الإباضية ضد الطغيان

كانت جيوش الفتح الإسلامي تحمل رسالة الله منطلقة بها في البلاد ، تدعو إلى الإسلام ، الإسلام المجرد الذي دعا إليه محمد صلى الله عليه وسلم ، نظيفا من الظلم ، نظيفاً من الطغيان ، نظيفاً من الجهل ، نظيفا من العنصرية ، نظيفاً من البدعة ، فكانت الشعوب تستبق إليه ، وتدين به ، مؤمنة مخلصة .

فلما انتهى عهد الخلفاء الراشدين ، بما يحمل من هدى وعدل وحق ، وخلفه ملك عضوض ، يتنازع عليه أهل البيت الواحد قبل أن ينازعهم فيه البعداء عنهم ، ويجده من حصل عليه منهم فرصة سانحة للاستغلال ، الاستغلال في أبشع صوره ومظاهره ، وأصبحت النفس المسلمة التي حرم الله قتلها ، أهون عندهم من نفس ذبابة ، وانحرف أولئك الذين يحملون أمانة الدولة عن الطريق التي رسمها لهم كتاب الله ، وهدي محمد عليه السلام ، وسيرة أصحابه الأخيار ، رضوان الله عليهم .

لما انحرف من بأيديهم مقاليد الدولة عن سبيل الله القويم ، إلى سبل مهدها الشيطان للنفس والهوى : ثار الناس . وكان حقاً على المؤمنين أن يثوروا لهذا التبدل ، وأن يعترضوا هذا الانحراف من حملة رسالة الله ، وأن يقفوا ضد الطغيان والظلم والعدوان .

ولقد اتخذت هذه الثورة على الانحراف عن دين الله مظهرين في الكفاح :

* أولهما : كفاح الباطل الزاحف في ركاب الأمراء والعمال وأتباعهم .

* وثانيهما : كفاح الباطل الزاحف في ركاب المبتدعين من أدعياء العلم والإيمان . ويتضح الأول في الثورات الدموية – ضد الظلم – التي انتشرت في جميع الجهات للإطاحة بأجهزة الحكم الفاسدة . والتي لا تزال إلى اليوم تقف هذا الموقف ، تسنح لها الفرصة فتمتشق الحسام . ويضيق عليها الخناق فتكتفى بالنقد .

ويتضح الثاني في مواقف العلماء المخلصين من البدع والأهواء ، وفي تشوق الأمة إلى معرفة الحقائق العلمية من مصادرها الموثوق بها ، ولذلك تلجأ إلى إرسال البعثات رغم ما تتكبده في ذلك من مشاق وأتعاب .

ولقد وقف الإباضية في ليبيا كما يقف جميع المسلمين المخلصين إلى جانب دين الله ، يدافعون عن الحق بما أوتوا من سلاح وعلم ، وفي الفصول المقبلة سوف نعرض صورا من كفاح

الإباضية ضد الطغيان ، وصورا أخرى من كفاحهم ضد الجهل والبدعة والخرافة والانحراف عن سبيل الله .

بدأ كفاح الإباضيه ضد الطغيان ، في سلسلة ثورات قاموا بها في ليبيا . وكانت الشرارة الأولى التي أوقدت هذه الثورة ، ثورة الإباضية على عدوان عمال بنى العباس ما ستقرؤه في الفصل الآتي .

ورة الإباضية على اليآس بن حبيب

يقول الأستاذ الطاهر الزاوي في كتابه " تاريخ الفتح العربي في ليبيا " :" عين عبد الرحمن أخاه الياس عاملاً على طرابلس ، وما زالت العرب إذ ذاك يخافون ثورة البربر وتدبير مكائدهم ، وكان رئيسهم في طرابلس عبد الله بن مسعود التجيبي رئيس الإباضية ، فقبض عليه الياس وضرب عنقه " .

وهكذا يناقش الأستاذ الزاوي هذه القضية على أنها قضية عرب وبربر لا دخل للإسلام فيها ، وما دام القاتل عربياً والمقتول بربريا فالقضية لا تستحق الاهتمام . وزعم الأستاذ الزاوي أن عبد الرحمن أراد أن يسترضى الإباضية فأقال أخاه الياس. ولكن هذا العمل لم يرض الإباضية ، فقال الزاوي في نفس الكتاب وفي نفس الصفحة : " وما زال الإباضية في غضبهم حتى نزعوا إلى الفتنة " انتهي كلام الأستاذ الزاوي .

إنني أريد أن أناقش هذه القضية بروح غير الروح التي يناقشها بها الأستاذ الزاوي ، أريد أن أناقشها بروح المسلم الذي يستوي عنده العربي والبربري ، والأمير والفلاح . (المسلمون

تتكافأ دماؤهم) وأن أعرض هذه القضية على دين الله .

إن عاملا في دولة إسلامية خاف من فرقة أو قبيلة أن تثور على ظلمة ، وترد عليه عدوانه ، فدعا إليه رئيس هذه الفرقة أو القبيلة وقتله ، دون أن يرتكب هذا الشخص ما يحل به دم امرئ مسلم ، وليس له من جريمة إلا أن العامل الظالم كان يخشى عواقب ظلمه وطغيانه .

هل نجد مسلماً صحيح الدين ، سليم العقيدة يحل دماء المسلمين لوساوس الأمراء ومخاوف الظالمين . فيفتي بجواز هذا القتل .

أي شرع ؟ أو أي عقل يحل دم مثل هذا الرجل البريء ؟ ثم لماذا لا نعتبر هذا الاستخفاف بدماء المسلمين وإراقتها دون موجب بحثاً عن فتنة ، وإثارة لثورة ، وتدبيراً للمكائد ؟ .

إن الإسلام قد حرم دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم ، ولم يبح منها شيئاً لوساوس الحكام وتخيلات العمال ، وأوهام الأمراء ، ومكائد الحواشي ...

إن رجلا يتولى أمر جماعة من المسلمين فيبلغ به الهوس إلى هذا الحد حقيق أن تثور عليه الأمة ، وتقتص منه للحق والعدالة ، وقد ثارت الأمة واقتصت ...

ثارت بالطريقة التي يدعو إليها الإسلام ، وفي الحدود التي جعلها المشرع الحكيم. واقتضت بالطريقة التي يدعو إليها الدين والعقل والإنسانية في أسمى معانيها.

ولا أريد في هذه القضية أن أرجع إلى مصادر الإباضية في التاريخ ، ولكنني أعتمد أيضاً على الأستاذ الزاوي في كتابه " الفتح العربي في ليبيا " فاستمع إليه يقص علينا قصة هذا الثأر :

" وما زال الإباضية في غضبهم حتى نزعوا إلى الفتنة ، وتقدم إلى قيادتهم أحد رؤسائهم وهو عبد الجبار (4) ابن قيس المرادي ، فالتفوا حوله ، وأعلنوا الثورة على العكي ، فخرج لمحاربتهم ، وأناب عنه في القيام بشئون المدينة " بكر بن عيسى" فحاصروا العكي في بعض القرى ، فطلب منهم الأمان فأمنوه ، وأخذوا من أصحابه نصير بن راشد مولى الأنصار فقتلوه في عبدا لله بن مسعود التجيبي . "

لست أدرى لماذا يريد الأستاذ الزاوي أي يرمى الإباضية بطلب الفتنة ، وهو نفسه يقرر أن الإباضية لم يقوموا ضد هؤلاء العمال الظالمين بشيء ، حتى بدأ هذا العامل الموسوس عدوانه عليهم ، فقتل رئيسهم دون جريرة ، فثاروا ، ولما انتصروا لم يزيدوا عن قتل رجل واحد ، رجل برجل حسب أمر الله أما العامل العكي فقد أطلقوه في أمان بعد أن تم لهم النصر .

إن هذا الموقف المشرف لم يقفه عامل واحد من عمال بنى أمية أو بنى العباس في حروبهم ضد أي طائفة من المسلمين ، وفي حروبهم الطويلة مع الإباضية ، ولم يتجاوزا أئمة الإباضية هذا الموقف المشرف في جميع حروبهم مع الموحدين .

4 - بويع الحارث بن تليد وعين زميله وصديقه عبد الجبار قاضيا ، خلافا لما ظنه الزاوي .

ومع أن الحــق فـي هذه القـضية واضح جلـى ، والأســتاذ الزاوي نفســـه يروى حقائق التاريخ كما وقعت ، إلا أنه مع ذلك غير راض ، فيزعــم أن الإباضيـــة ينزعون إلـــى الفتنة ، ويثيـــر قضية العرب والبربر ، هذه القضية العنصرية البعيدة عن روح الإسلام ، ولكنه حــرص أن يحييهــا ويتتبعها ، ولا ينفك فـــي كل فرصة عن رمى البربــر بأنهم أصحاب فتنة ، وتدبير مكائــد ، وقد قدمت في غير هذا الفصل من هذا الكتاب ، أن أحياء العنصرية قضية لا يدعو إليها مسلم ، فقد حاربها رسول

الله صلى الله عليه وســلم ، ويكفى فيها قوله عليه السلام (دعوها فإنها منتنة)

وقد حارب رســول الله صلى الله عليه وســلم أقوام من العرب ، وارتد أقوام بعــد الإيمان ، كما فعل ذلك أقوام من البربر وغيرهم من الأجناس ، ولكن ما فعله أولئك الذين كتب لهم الشــقاء ، لا يحسب جريرة على أجناسهم أو عناصرهم ، والإباضية يحرصون كل الحــرص أن يكــون الرابط الــذي يربط بين صفوفهــم إنما هو التمســك بدين الله ، كما جاء عن محمد صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن لديهم أي اعتبار لغير هذه الرابطة ، وحســبك أن تعلم أن هــذا الإمام الذي بايعــوه في ثورتهم علـــى الظلم ، ليناهض عدوان المعتدين من عمال بنى العباس الظالمين ، إنما هو الحارث بن تليد الكندي العربي ، فهل هذه الثورة فتنة من البربر ؟

إن الإباضيـــة لا يعرفـــون العنصريـــة ، ولكن يعرفـــون أن أكرم المؤمنين عند الله أتقاهم ، وأن أبغضهم إليه أظلمهم وأعصاهم،

يســتوي في ذلك العرب والبربر ، والهنود الحمر والأحباش السود ، كلكم لآدم وآدم خلق من تراب .

إن مرارة العدوان على أقدس شــيء في شريعة الإسلام وهي النفس البشرية ، هي التي جعلت الإباضية يثورون ، وحق لهم أن يثــوروا ، وأن يقلبوا نظام الحكم على أولئــك الظالمين ، فإن حكم الله أحــق أن يتبــع . وهم عندما يثــورون لا يطغــون ولا يتجاوزون الحدود التي رسمها لهم حكم الله .

والأســتاذ الزاوي على ذلك من الشــاهدين ، فــإن قتل النفس بالنفــس هو الحكم الذي نزل به الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . ولن تجد مهما فتشت في مطاوي التاريخ ، وعند غير الخلفاء الراشــدين ، هذه المواقف المشرفة التي يقفها الإباضيـــة من أعدائهم ، حــين ينهزم أولئك الأعــداء ؛ يخير أمير الجنــد وقائد المعركة بين البقــاء أو الرحيل آمناً موفوراً ، وتســلم جميع الأموال والأعراض لأصحابها ، لا يمس منها دانق ولا درهم ، وتحتــرم الدماء ، فلا تهرق قطرة دم بعد إيقاف القتال ، فلا عقوبة ، ولا تتبع ، ولا مثلة ولا حز رؤوس .

قارن هذا الموقف المشــرف الذي لن تجده بعد الخلفاء الراشدين إلا عنــد الإباضية ، قارن هذا الموقف بمواقف أولئك الذين يحاربون الإباضيـــة ويتهجمون عليهم ، ويقتلون منهم الأبرياء بغير ذنب ، ويهتكون الحرمات ، ويســتحلون الأموال ، ويحزون الرؤوس ليبعثوا بهــا إلى دمشــق أو بغداد ... ومع ذلك فإن بعــض المؤرخين الذين يعيشـــون فـــي القرن العشــرين ، يحلــوا لهم أن يقولــوا : " ونزع

الإباضية إلى الفتنة " .

أية فتنة هذه التي نزع إليها الإباضية ، أأن قتلوا القاتل ، نفساً بنفس فحسب وأطلقوا سراح بقية المعتدين ، لم يمسوا شيئاً من دمائهم وأموالهم وأعراضهم وحرماتهم ؟ لا يتبعون مدبراً ، ولا يجهزون على جريح ، ولا يأخذون دانقاً من مال ؟

ترى ما رأى هذا المؤرخ المعاصر لو أن الإباضية ارتكبوا ما يرتكبه فهم محاربوهم ، فلم يعفوا عن مال أو دم أو عرض أو حرمة ؟

وما رأيه لو أن جميع الحروب التي وقعت في التاريخ الإسلامى كان الدافع إليها والسيرة فيها مثل دوافع الإباضية وسيرتهم في الدماء والأموال .

لقد كان الخوارج يستحلون دماء المسلمين وأموالهم بالتأويل الخاطئ ، أما رجال الدول الظالمة وأجنادهم فقد كانوا يستبيحون جميع الحرم من دم ومال وعرض بالعمل . وكلا الموقفين بعيد عن الإسلام ومبادئ الإسلام ...

عمرو بن يمكتن (5)

مؤمن من المؤمنين المخلصين ، وبطل من أبطال الكفاح ،كفاح النفس عن الشهوة ، وكفاح الجهل بدين الله ، وكفاح الظلم والعدوان في شتى مظاهره وألوانه .

قال فيه أبو العباس – وحسبك بشهادته شهادة " ساد أهل زمانه علماً وعملا ، وسارع إلى الخيرات قولا وفعلا ،قال ابن سلام : كان عالماً من علماء المسلمين "

وهي شهادة من محقق ، لا تقل عن سابقتها لو كان الرجل يحتاج إلى شهادات، ولكن هذا البطل وأمثاله من الأبطال في غنى عن شهادات الناس لدينهم ولدنياهم.

كانت أمنيته وهو شاب صغير لا يجد مدرسة يلتحق بها ، أن يحفظ كتاب الله ، وأن يعلمه للناس ، ولما عسر عليه هذا المطلب ، وعز عليه تحقيق الأمنية الغالية في قريته النائية في جبل نفوسة ، سافر إلى مغمداس ، هذه الطريقة التي يمر بها أفواج المسلمين مشرقين أو مغربيين ، فيأخذ معه لوحه منذ الصباح

5 - ذكره أبو زكريا في الطبقة الثالثة ؛ فهو من علماء النصف الأول من القرن الثاني الهجري ، كان عاملا للإمام أبي الخطاب ، على سرت ونواحيها

الباكر ، يعترض الســابلة ، يتلقى منهم آيات من كتاب الله حتى إذا امتلأ لوحه رجع إلى البيت ليســتظهر ما كتب من آيات بينات ، فــإذا حفظها رجع إلى الطريــق ، ولم يمض عليه وقت طويل في هذا الكفاح حتى حفظ كتاب الله وكثيرا من ســنة رسول صلى الله عليه وسلم ، وحينئذ اطمأنت نفسه ، ويرجع إلى " أفاطمان " هذه القرية الحبيبة إلى نفســه ، والتي لم يبق منها اليوم إلا آثار شاهدة ، بين الحرابة والرحيبات من جبل نفوسه . وفي هذه القرية فتح عمرو ابن يمكتن أول مدرســة لتعليم كتاب الله . فكان الناس يقبلون عليه في شغف ورغبة .

لقد أنجبت دَمْــرَا بنت دَرْجو الحمدانية هــذا البطل وهو أصغر أبنائها وحسبها ولداً .

كافــح مفرداً فحفــظ كتاب الله مــن الســابلة . وافتتح أول مدرســة قرآنيــة ، ما لبثــت أن أصبحت مناراً يشــع النور والعلم والإيمــان فــي كامل جبل نفوســة ، بل فــي كامل الجــزء الجنوبي مــن ليبيا ، وصارت " أفاطمان " منــذ ذلك الحين مقراً لأهل العلم والفضل والدين .

أمــا عمرو بن يمكتن فلم يلبث أن أنتقــل من أفاطمان ، انتقل ليكافح كفاحاً أعظم خطراً وأهم شأناً في واجهة أخرى .

بايــع الإباضيــة أبــا الخطاب عبــد الأعلــى بن الســمح أميراً للمؤمنــين على ليبيــا وما جاورهــا، بايعوه علــى أن يقيم فيهم كتــاب الله ، ويحكــم بينهم بحكم الله ، ويســير بســيرة الخلفاء الراشــدين ، وأن يــرد عنهم عدوان المعتديــن ، وطغيان الطاغيين

وسارع إليه المؤمنون الذين ملوا الجبروت والجور والظلم ، وكان من أســرعهم إليه وأخلصهم لإعادة حكم الإســلام كما أنزله الله ، عمــرو بن يمكتن ، وعرف الإمام دينه وخلقه وأمانته فوثق به ، وَمَنْ لا يثــق بمثل هذا الرجل القوى الأمــين ؟ فجعله قائداً على بعض الجنــد في حروبه الأولــى ، ثم عينه عاملا على ســرت ، ومن أولى بعمالة ســرت من عمرو بن يمكتن ، هذا الرجل الذي عرف مسالك البــلاد وطبائع أهلها وهو طالب علم يقتبس الحكمة والهدى من حملة كتاب الله .

" ســرت " هي طريــق العباســيين للعدوان ونجــدة المعتدين ، ولذلك كان أبو الخطاب يلتمس لها عاملا تتوفر فيه معرفة البلاد وطبائع أهلها ، والقوة في دين ، والعلم بأحكام الله ، والشــجاعة في مواطن الكفاح ، واليقظة والحذر والذكاء .

ووجد هذه الصفات في هذا البطل ، فجرى به التعيين .

وذهــب العالم الحافظ البطل إلى هذا الثغر ليحول دون غارات الأعــداء ، وليذيق ســكان تلك الجهــات طعم الســيرة المرضية ، السيرة التي دعا إليها دين الله ، وسار بها المؤمنون حقاً .

لقــد اتخذ أبو الخطاب مركز الدولــة في طرابلس وكانت أهم الثغور عنده هي سرت والقيروان ، واختار الإمام أقوى رجلين عنده ليجعلهمــا في هذين الثغرين ، فولى عمرو بن يمكتن الأفاطماني علــى ســرت وولى صديقه وزميلــه في الدراســة عبدالرحمن بن رســتم علــى القيــروان . وهذا يــدل أن منزلة والي " ســرت " في ذلــك الحين لا تقــل عن منزلة عبدالرحمن فــي نفس أبي الخطاب

، ولعل مركز سـرت في ذلك الحين وهـي معبر الجند والقوات أهم من مركز القيروان وهي مقصد الخوارج والمعتزلة وموطن الثورات والشغب .

أخـذ العامـل الحازم يعمل بمـا يقتضيه هذا المنصب : ينشـر العدل ، ويوصل الحقوق ويقيم أحكام الله ويسير بين الناس سيرة المؤمن بين إخوانه المؤمنين ، وكان مستمداً لمحاربة الجيوش الغازية ، لا يخشاها ، وقلوب الناس معه وهم راضون عنه محبون له ، ولم يكن يخشـى من تلك الجيوش إلا المباغتـة حينما ينصرف الناس إلى أعمالهم وقد أمنوا العدو . ولذلك فقد كان لا ينفك يسـأل عن تحركات العدو ونواياه ، ومن مأمنه يؤتى الحذر .

إن عمـرو بن يمكتن الذي يسـير بسـيرة أبي الخطـاب لم يكن يتخـذ جنداً مقيمـا تدفع له الرواتب ، وهو ينتظر السـاعة التي يدعـى فيهـا إلى الحرب كما يفعـل بنو العباس ، ولما كان يسـير سـيرة الخلفاء الراشـدين ، عندما يخرب الأمر ويقتضي الدفاع أو إعلان الحرب ، يدعـوا الناس إلى التطوع فيتطوعون وهم يؤمنون بالفكـرة، ويحاربون عن مبدأ . حاولت الجيوش العباسـية أن تحارب أبا الخطاب علناً، فلم تسـطع ، وانهزمـت هزائم منكرة في عدة وقائع ، ولذلك لجأت إلى الحيلة.

كان محمد بن الأشـعث الذي عينـه أبو جعفر المنصور لمحاربة أبي الخطاب ، وجعل تحت قيادته جيشـًا يتكون من سـبعين ألف جنـدي معد للقتال يعرف أنه لا يسـتطيع أن ينـازل هذا الإمام القـوي فـي جند يحارب عـن مبـدأ ، ويدافع عن حـق ، فلجأ إلى

الحيلة .

أوعز إلى من يخبر عمرو بن يمكتن عامل الإمام أبي الخطاب أن محمد ابن الأشعث لا يحاربه إلا علناً ، وفي وضح النهار ، وقال له (لا يأتيكم ابن الأشعث بغفلة ، وهو في جند أمير المؤمنين برجال مشـمرين ، وخيل مضمرات ، وسيوف مهندات ، بل يأتيكم جهاراً نهـاراً) وهكذا أمـن عامل أبي الخطاب على سـرت من المباغتة ، ثـم أظهر ابن الأشـعث أنه ينوي الرجوع ، وأمر جيشـه بالتحرك ، وقتـل من اعترض الفكـرة ، فكره الرجـوع ، فانطلت الحيلة على أصحاب أبي الخطاب وهم كما قلت سـابقاً متطوعون ، والموسم موسـم حصاد ، ففضلوا أن يذهبوا إلى كفاحهم من أجل الحياة مـا دام الخطر بعيداً ، ورغم تحذيـر أبي الخطاب لهم وفهمه لنوايا ابـن الأشـعث ، إلا أن القوم تفرقوا ، وعندما فهم ابن الأشـعث أن حيلتـه انطلت على أصحاب أبـي الخطاب ، وأنهم تفرقوا عنه ، أغذ السـير ، وجاءهم على حين غفلة ، وقتل عامل سـرت فيمن قتـل من الأبطال ، وتم النصر لابن الأشـعث وجنده ، وارتكبوا من الجرائـم – بعـد الحرب – مـا تعوده العمـال الظالمـون ، من نهب وسـلب وتقتيل واتباع للفارين وترويع للآمنين المسـلمين ، وانتهاك للحرمات التي صانها الإسلام ، وحفظها الإيمان بالله ...

وفي هذه الموقعة الحاسـمة التي وقعت في تاورغا استشهد بطل من أشـد الأبطال، وعالم من أعظـم العلماء ، ومؤمن من أخلص المؤمنـين ، فاختتمت صفحة بيضاء من صفحات التاريخ الإسلامي ، سـجلت عليها مآثر في كفاح النفس وكفاح الجهل ، وكفاح العدوان .

وإذا كان سلمة بن سعد أول داعية إلى اتباع الحق في هذه الربوع ، وكان أبن مغطير أول منفذ لفكرة البعثات العلمية ، وهما بذلك يبنيان ركناً هاماً في تاريخ الكفاح العلمي ، فإن ابن يمكتن هو أول من استطاع أن يبلغ إلى درجة علمية بقوة الإرادة والعمل الدائب المستمر ، ثم هو أول من أفتتح مدرسة لتعليم كتاب الله ، وبهذا العمل المجيد يحق أن يعتبر من أهم أركان الكفاح العلمي في ليبيا ، ولكنه بالإضافة إلى هذه الصفات المشرفات التي يسجلها مع زميله في خدمة العلم والدين ، له صفحات أخرى مشرقات في كفاح الظلم والطغيان ...

إنه شخصية هامة في تاريخ الحركات الإسلامية في ليبيا ، وأنت حين تتحدث عن أبطال الكفاح السياسي أو العسكري لا يمكن أن تغفل هذا البطل القوي ، وحين تتحدث عن العلم والعلماء ، وعن الإيمان والمؤمنين ، وعن الكفاح من أجل الحق في جميع ميادينه ، لا يمكن أن ننسى عمرو بن يمكتن ، وهنيئاً لدَمَّرا الحمدانية فيما أنجبت ...

إن الحديث عن عمرو بن يمكتن باعتبار الحوادث السياسية يكون بعد أبي الخطاب ، ولكنني حين تحدثت عن جانب من الكفاح العلمي ، وتعرضت لسلمة وابن مغيطر ، رأيت أن أتحدث عن هذا العامل هنا ، لأنه يمثل جانباً من الكفاح العلمي في ذلك العصر ،وبه تتم الصورة التي أردت أن أضعها بين يدي القارئ الكريم لذلك العصر .

الحارث بن تليد

بطل من أولئك الأبطال الذين يظهرون فجأة عند الحوادث ، فيبرزون بين الصفوف لقيادة الجموع عندما تكون القيادة رسالة يجب على المؤمن أن يؤديها .

لقد كان الإباضية في ليبيا منصرفين إلى دينهم وأعمالهم ، لاتهمهم مناصب الدولة ، ولا يلتفتون إلى كراسي الحكم . حتى تحرش بهم الياس بن حبيب فقتل أحد المؤمنين دون جريرة ، ليرهب جانبهم ، ويزرع في قلوبهم الذعر فيما حسب، ولكن القضية جاءت بعكس المطلوب .

طلبت الإباضية من عبد الرحمن بن حبيب أن يقتل أخاه إلياس بقتله مسعود التجيبي ولكن العامل آبى من ذلك وكل ما فعله أنه عزل أخاه إلياس عن ولاية طرابلس وولى بدله حميد بن عبد الله العكي ، يعنى أنه جعل العزل من منصب يكافئ دم مؤمن برئ ...

ولما وقف العامل هذا الموقف البعيد من حكم الله ، ثار الإباضية ، فبايعوا الحارث بن تليد إماماً ، فتقدم وهو يعلم أنه يتقلد أمراً عظيما ولذلك اختار عبدالجبار بن قيس المرادي قاضياً

، ومشيراً ، وصديقاً ، فكانا ثنائياً لا يفترق حتى أن كتب التاريخ لا تذكرهما إلا مقترنين ، بل إن بعض المؤرخين لم يعرف الأمير من القاضي .

وما سمع العكي والي عبد الرحمن بن حبيب على طرابلس ببيعة الإباضية للحارث بن تليد حتى جهز جيشاً وخرج للقضاء عليه ، ولكن النصر كان في جانب الإباضية ، فتفرق جيش العكي وألقى عليه القبض في إحدى القرى ، فأطلق سبيله وخيَّر بين البقاء ، له حقوق المسلمين وواجباتهم ، أو السفر آمنا موفوراً ، فاختار السفر ، ولم يقطع الإباضية رأسه ليعلقوها على سور المدينة كما يفعل الظالمون ، وإنما كل ما فعلوه عندما تم لهم النصر أن قتلوا رجلا في صاحبهم ، رجل برجل كما يقضى حكم الله من سبع سماوات ...

والتف الناس حول الحارث بن تليد في ليبيا لعدله واستقامته وسيرته الرضية ، فاهتم لذلك عبدالرحمن بن حبيب وصار يرسل الجيش تلو الجيش للقضاء على هذه الإمامة التي انتزعت ليبيا من الحكم الظالم ، ولكن جميع هذه الجيوش كانت تعود إليه منهزمة ، وأصبحت ليبيا كلها تحت حكم الإمام الحارث بن تليد .

وعندما عرف عبدالرحمن أن القوة لا يمكن أن تنتصر على الحق ، وأن الجند الذين يحاربون عن متاع من الدنيا قليل ، لا يمكن أن يقفوا في وجه جند يدافعون عن مبدأ اعتنقوه ، وحق اعتقدوه ، عندما عرف ذلك لجأ إلى الحيلة .

لقد كان الإمام الحارث يسير بسيرة الصفوة من حكام

الإسلام ، لا يتخذ حاجباً ولا يجعل على باب بيته حارساً ، ولا يرد عنه متظلم أو باك ، ولذلك كان الناس يغشون بيته في أي وقت شاءوا ليس بينهم وبينه إلا الإذن الذي فرضه أدب الإسلام على المؤمنين .

واستغل العدو هذه السيرة العطرة في أبشع ما يستغل به الحق للباطل ، فقد أوعز إلى جماعة ممن لا دين لهم ولا ضمير ، فدخلوا على الإمام وكان قاضيه وصديقه معه ، دخلوا في صورة متخاصمين ، ولما اطمأنوا إلى أن الإمام والقاضي مستغربان في تفهم المشكلة المعروضة عليهما ليحكما فيها بما أنزل الله وهما غير مسلحين ، وثبوا عليهما وقتلوهما ، وجعلوا في يد كل واحد منهما سيفاً ، ثم خرجوا ، وكأنهم لم يرتكبوا أفظع جريمة يرتكبها رجل سلب الإيمان والضمير .

واكتشفت الحادثة فيما بعد ، واعتقد كثير من الناس أن الصديقين تنازعا فقتل كل منهما صاحبه ، وكثر النقاش في معرفة الظالم من المظلوم ، ولم تنجل الحقيقة إلا بعد أن وجد عبدالرحمن بن حبيب الفرصة التي يتحينها ، فحينما كان الإباضية في موقف الحائر المتردد في معرفة الحادثة والأسباب الداعية إليها ، وعندما كان العارفون منهم يحاولون أن يوحدوا الصفوف والجهود فكانوا يسترشدون برأي إخوانهم في المشرق ، وكان الرسل يقطعون المسافات الطويلة ذهاباً وإياباً ، في هذا الحين استطاع العامل القيرواني أن يكسب المعركة . وأن يرجع إليه حكم البلاد . وهكذا نجحت المكيدة حينما فشلت القوة . ولم تزل المكائد والفيلة هي سلاح الظالمين في كل عصر ومصر .

أبو الخطاب
عبد الأعلى بن السمح

كانت دروس أبي عبيدة في معاني الحرية ، وفي الكرامة البشرية ، وفي وجوب إقامة شعائر الله ، والمحافظة على حقوق الإنسان التي أقامها الإسلام ، وفي تحريم الخنوع والذلة والاستسلام على المؤمنين ، وفي وجوب محاربة الطغاة ومطالبتهم بالوقوف عند حدود الله ، كانت تلك الدروس الدينية والوطنية قد أثرت تأثيرها الحسن على نفوس طلابه الذين لقبوا فيما بعد " بحملة العلم إلى المغرب " ولذلك فقد سألوه عندما أخذوا حظهم من العلم ، وتحصلوا على الدرجة التي تؤهلهم لتبليغ الدعوة ، الدعوة إلى دين الله كما جاء به رسول صلى الله عليه وسلم ، سألوا الإمام الكبير هل يجوز لهم إذا أنسوا في أنفسهم قوة ، ورأوا أنهم يستطيعون أن يقيموا أمر الإسلام على ما جاء في دين الله وسيرة السلف الصالحين ، هل لهم أن يقوموا لذلك ؟ واستمع الإمام إليهم وهو يتوقع منهم خيراً وأذن لهم في العمل ، واختاروا لهم أبا الخطاب ليقوم بأعباء الدولة المسلمة الجديدة ، فإن امتنع قتلوه وولوا غيره .

ورحل الزملاء الأصدقاء الذين ربطت بينهم أواصر الدين وزمالة الدراسة ، فاختاروا ليبيا لأقامتهم ، واستقروا بعاصمتها طرابلس ، هذه المدينة الجميلة الحالمة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط ، أما البلاد التابعة لهذه المدينة فقد كانت تمتد في الأقطار الثلاثة :ليبيا ، تونس ، الجزائر ، هذه الأقطار التي أصبحت اليوم ممالك مستقلة عن بعضها بما أقامه الاستعمار من حدود بينها أما في ذلك التاريخ فإن الإسلام لا يقيم الحدود ولا يقسم الشعوب ، ولا يعرف القوميات الطبقية ، ولا الجنسيات المختلفة ، إن المبدأ الذي يؤمن به الجميع هو : (الله ربنا ، والإسلام ديننا ، ومحمد نبينا ، والكعبة قبلتنا ، والقرآن إمامنا ، رضينا بحلاله حلالا ، وحرامه حراماً ، لا نبتغي به بدلا ، ولا عنه حولا ، لا جنس ولا لون ، ولا وطن، فالجنس هو البشرية ، والوطن هو بلاد الإسلام ، أما اللون فإن الأبيض والأسود والأصفر والأحمر كلها من خلق الله الذي أحسن كل شئ خلقه ثم هدى) .

استمرت البعثة العلمية في طرابلس وكانت البلاد في ذلك الحين تعاني من الظلم والجبروت ، وتقاتل الولاة على مناصب الدولة لابتزاز الأموال ، واستذلال الناس ، والحكم بالهوى الذي ما أنزل الله به من سلطان ، كانت البلاد تعاني من ذلك ما لم يبق في قوس الصبر منزعاً ، أو في صدر الحليم سبباً للأناة والاحتمال ، وتشاور أربعة أصدقاء من أفراد البعثة في إنقاذ الأمة من هذا الطغيان المسلط عليهم ، وإتاحة فرص الحياة الكريمة لهم ، وإقامة أحكام الله كما أنزلها الله ، وعرضوا فكرتهم على أصحاب الرأي والعلم من أهل البلاد ، فوجدوا منهم إقبالا وتشجيعاً.

وحينئذ أخبروا زميلهم الخامس أبا الخطاب أنهم مطلوبون إلى صلح بين متخاصمين في الضاحية الغربية لطرابلس " صياد " وتم الاجتماع واتفقوا على مبايعة أبي الخطاب بالإمامة ، فلم يدر إلا والقوم يطلبون منه أن يمد يده للبيعة فيحكم بينهم بكتاب الله ، ويقيم الحدود ويسير سيرة الخلفاء الراشدين ، وحاول أن يمتنع من هذه المسؤولية العظمى ، وأن يتخلص من هذا الموقف الذي توضع فيه أمانة الأمة بين يديه ، وأجاب القوم بأنهم إنما أتوا لإجراء صلح بين متخاصمين لا لإقامة خلافة ، ولكنهم أصروا على موقفهم ، وذكروه بوصية الإمام أبي عبيده وخيروه بين قبول البيعة أو القتل ، فرضى مكرها ، ولكنه اشترط عليهم أن لا يذكروا مسألة الحارث وعبد الجبار ، واشترطوا عليه ما يشترطه المؤمنون الذين يلقون بمقاليد أمورهم إلى رجل يثقون بدينه وأخلاقه وأمانته ، وتمت البيعة ، ورجع القوم دون قتال لأن جميع السكان كانوا يتوقون إلى الخلاص مما هم فيه من عذاب ، ودعا أبو الخطاب الوالي السابق على المدينة ، فخيره بين البقاء وله ما لإخوانه من المسلمين ، وعليه ما عليهم من الحقوق والواجبات ، أو الرحيل آمنا موفور الكرامة، فاختار الرحيل . ورتب أبو الخطاب أمور الدولة ، فأسند القضاء إلى إن درار الغدامسي وولى عمرو بن يمكتن على سرت وما والاها .

بدأت الأخبار ترد على أبي الخطاب بما ترتكبه قبيلة ورفجومة البربرية من فظائع في القيروان ، فقد سمع بعتوهم وطغيانهم وجورهم وسومهم الناس سوء العذاب ، وربطهم لدوابهم في المسجد الجامع ، وأرسلت إليه امرأة كتاباً تخبره فيه أنها تحفظ

ابنتها في مطمورة خوفاً من ورفجومة ، وأتاه رجل أخبره أنه مر بالقيروان فرأى ناساً من ورفجومة كابروا امرأة على نفسها ، والناس ينظرون إليهم ولا ينكرون ذلك خوفاً منهم ، وبلغه أن جماعة أخرى من هؤلاء الناس أخرجوا امرأة وهي تصيح : يا معشر المسلمين أغيثوني ، فلم يغثها أحد . عندما تواترت هذه الأخبار عند أبي الخطاب ؛ دعا الناس إلى اجتماع ، وحثهم على الجهاد في سبيل الله ، ودفع المنكر الذي يؤتى علنا في بلد مسلم ، وبين أناس مسلمين . فاجتمع عليه عدد وافر من أهل البصائر الذين يؤثرون الآخرة على الحياة الدنيا . فأمر منادياً ينادى في الجيش ، من كان له أبوان أو أحدهما أو له عروس جديدة فليرجع بليل . وفي الصباح يتقصى الأثر حتى إذا انقطعت الآثار الراجعة ولم يبق معه إلا أولئك الذين عزموا على الاستماتة في كفاح الباطل .

سار بهم حتى أتى قابساً فاحتلها دون عناء وجعل عليها والياً ، ثم سار إلى القيروان .

لقي جموع ورفجومة فقاتلهم حتى انهزموا ، فتحصنوا بالمدينة ، فبقي محاصراً لها مدة طويلة حتى اضطروا إلى القتال من جديد ، ووقعت بينهم موقعة هائلة. أسفرت عن انهزامهم ، فأمر بأن لا يتبع مدبرهم ، ولا يجهز على جريحهم ، ولا يؤخذ شيء من أموالهم ، وأعلن الأمان للناس ، فخرج الناس إلى أعمالهم كما كانوا يفعلون أيام السلام ، ومرت امرأة بميدان القتال وعجبت حين وجدت قتلى ورفجومة مجندلين في ساحات الكفاح دون أن يمس شيء من أسلابهم ، فقالت : "كأنهم رقود " وسمى المكان منذ ذلك اليوم " رقاده " وإن حاول بعض الناس فيما

بعد أن يغير هذا الاسم .

وكانت مفاجأة مذهلة للناس عندما وجدوا مزارعهم وحقولهم وثمارهم سليمة لم يمس منها شيء إلا إذا كان من تقلبات الجو أو وحوش الصحراء . وعجبوا من عدل هذا الإمام ، ونزاهته وطاعة الجيش له . وغفلوا أن هذا الجيش لم يتكون من جند يعملون لمكاسب الدنيا من رواتب يقبضونها ، وغنائم يختلسونها . وإنما قوام هذا الجند قوم يدافعون عن الحق والدين ، لا يبتغون عرضاً من الدنيا ، ولا غنيمة في هذه الحياة القصيرة ، ولا جاهاً عند الناس . وتفقد الإمام القتلى ، فوجد واحدا منهم قد أخذ سلبه ، فأمر برد كل ما أخذ . ولكن الغال ، لم يسمع لأوامر الإمام واحتفظ بالسلب ، وغلب عليه الشيطان وعندما رجع الجيش بعد أن دفع المنكر عن الأمة وأشاع الأمن في البلاد ، وأرجع الحقوق إلى أهلها . وعندما رجعوا وكانوا بالطريق خطر لهم أن يتسابقوا .

ووقع السباق بين الفرسان لإظهار البراعة والرشاقة . وكان جميل السدراتي ممن يثق بنفسه ويعجب بفرسه فاشترك في هذا السباق . ولكن شاء له سوء حظه أن ينقطع حزام سرجه ، وأن ينكشف السلب تحته ؛ وأن يشهد فضيحته كل الجيش فأدبه الإمام على خرقه لنظام الجيش واستحلاله لمال المسلمين . وغلوله لما حسبه غنيمة .

وقال خالد اللواتي للإمام : " نأكل من أموالهم كما يأكلون من أموالنا . قال الإمام: حقيق على الله أن يدخلنا معهم النار

إذن . وارتحل أبو الخطاب وجيشه إلى طرابلس بعد أن نصب عبدالرحمن بن رستم والياً على القيروان .

استكبر جميل السدراتي أن يفتضح أمره أمام الناس وأن يقام عليه الحد . ولذلك فقد التحق بأبي جعفر المنصور وبقى يبذل المحاولات سنة كاملة ليقنع أبا جعفر بضرورة حرب أبي الخطاب والقضاء عليه ، واستجاب له أبو جعفر أخيراً .

وبدأ يجهز الجيوش إثر الجيوش لمقاتلة أبي الخطاب . وبعد وقائع مذهلة ذاق فيها أبو جعفر مرارة الهزيمة استطاع محمد بن الأشعث أن يغرر بجيش أبي الخطاب وأن ينتصر عليه الانتصار الحاسم . وأن يرتكب من الفظائع ما يبرأ منه الإسلام والمسلمون.

إنني لم أضع هذا الكتاب لسرد وقائع التاريخ إلا بمقدار الضرورة التي أراها واجبة التي لتوضيح الصورة التي أضعها بين عيني القارئ الكريم ، فإن الوقائع التاريخية توجد في الكتب المعتنية بذلك مفصلة وإني أريد في هذا الكتاب أن أجلو سيرة أهل هذا المذهب وأثر الدين والعقيدة على سلوكهم الفردي والجماعي وتوجيهه لهم في حالتي الحرب والسلم والظهور والكتمان ...

ولقد قام أبو الخطاب بعدة حروب ، بعضها مع البربر ، وبعضها مع العرب وبعضها مع مزيج منهما . ولكن سيرته في كل ذلك كانت سيرة واحدة . كفاح الظلم والطغيان ، ودفع للمنكر والعدوان حتى إذا انتهت الحرب أشاع الإمام الأمان بين الناس ،

وســاوى بينهم في الحقوق . ولــم يؤاخذ أحداً منهم بما فعله إبان الحرب . فلا يحاسب مجرى الحرب باصطلاح هذا العصر . ولم يتبع الفارين . ولم يروع المسالمين ولم يجهز على الجرحى و التي لم يمس شيئاً من أموالهم ولم يقطع رؤوس زعمائهم وكبرائهم .

تلك ســيرته وهي الســيرة الغــراء التي يدعو إليها الإســلام والتي تعرفها للخلفاء الراشدين الكرام .

مواقف غير عادلة

يقــول الأســتاذ الطاهر الزاوي في كتابــه " الفتح العربي في ليبيــا " بعد أن تكلم عن أبي الخطاب . يقول : " والذي يمعن النظر في حروب أبي الخطاب مع جيوش أبي جعفر المنصور . لا يشك في أنها حروب قصد منها توسيع النفوذ . والاحتفاظ بالسلطة على أكبر عدد ممكن من الناس . وعلى أوسع رقعة من الأرض " .

ولــو لا أن كثيــراً من الناس الذين لا يتبعون التاريخ ويســيرون مع أحــداث الزمن قد يظنون صحة هذا الرأي . ويقتنعون بتعليل المؤلــف لهذه الثورات العارمة . التي كان أبو الخطاب يجاهد فيها بمــا ملكت يداه من روح ومال .لولا ذلك لســكتُّ عن هذه الغمزة من المؤلف . كما ســكت عن عشــرات الغمزات التي يمليها قلب غير سليم .

يقول الأستاذ الزاوي في كتابه " الفتح العربي في ليبيا " وهو يتحدث عن أبي الخطاب العربي : " وكان من أشد خصوم سياسة العــرب في إفريقية . وقاتلهم انتصــار لبنى مذهبه . وقد أخلص للبربر إخلاصاً جعله منهم في محل التقدير . الخ ".

ويمضــي المؤلــف على هــذه الوتيــرة لا يتحدث إلا عــن البربر

والعرب . وعجيب والله أمر رجل مسلم يكتب عن التاريخ في هذا العصر بهذه الروح البالية .

يقـول الأسـتاذ الزاوي : إن أبـا الخطاب كان من أشـد خصوم سياسة العرب في ليبيا .

إن أبـا الخطـاب أيها الأسـتاذ والإباضية من قبلـه ومن بعده ، ليسـوا خصومـاً للعـرب ، إنهم أخـوة لهم وإنما هـم ، خصوم للانحـراف بدين الله ، وأعداء للطغيان والعدوان والظلم ، سـواء كان ذلك من العرب أو من البربر أو من غيرهم من الأجناس ، فهم منذ أكرمهم الله بالإسلام كانوا ينظرون إلى المسـلمين بأنهم أمة واحدة وينظرون إلى أولئك الذين يستغلون مراكز الحكم أسوأ استغلال بأنهم ظالمون يجب أن يؤخذ على أيديهم حتى يعتدلوا أو يعتزلـوا ، وموقف الإباضية من طغـاة البربر والعرب واحد في كل الأحـوال ، علـى أن الذي يرجع إلى تاريخ أبي الخطاب نفسـه وحسـبما رواه الأسـتاذ الزاوي يجد أن أبا الخطاب هو الذي هاجم ورفجومـة – القبيلـة البربريـة الكبيرة ، حين بلغـه عنها البغي والفسـاد ، حاربها حرباً طاحنة حتى أخرجها من القيروان – هذه المدينة التي وضع الحجر الأساسي فيها أصحاب رسول صلى الله عليه وسلم ، فطهر مسجد عقبة من دواب ورفجومة .

وأبو الخطـاب حين يهاجم هـذه القبيلة الباغيـة لم يهاجم غيرها من القبائـل والبلدان . فقد قام بأمر الإمامة في طرابلس دون أن يريـق قطرة دم ، أما حروبه فيما بعد فهي رد للعدوان الذي تشنه عليه جيوش العباسيين المتعاقبة . وفي جميع تلك الحروب

الظالمـة التي انتصر فيها أبو الخطاب سـواء في ورداسـة أو في مغمداس أو في غيرها ، كان أبو الخطاب مثالا حياً لسيرة الخلفاء الراشـدين ، لا يتبـع مدبـراً ولا يجهز على جريـح ، ولا يغنم مالا ، ولا يعاقـب علـى الموقف المضاد في الحـرب ، ولا ينتقم من قادة وزعماء الفريق الثاني ، ولا يصل منه ولا من جيشه أي أذى للبريء والمسالم .

وعنـد ما خـرج محمد بن الأشـعث من مصر إلـى لقاء أبي الخطاب ، أرسـل عيوناً يسـتطلعون له الأحوال ، فلما رجعوا إليه سألهم فقالوا : أنطيل أم نجمل ، فقال ابن الأشعث : بل اجملوا . قالوا : " رأينا رهباناً بالليل ، أسوداً بالنهار ، يتمنون الجهاد بلقائكم كما يتمنى المريض لقاء الطبيب . لو زنى صاحبهم لرجموه ، ولو سـرق لقطعوا يده ، خيلهم من نتاجهم ، ليس لهم مال يرتزقون منه ، وإنما معاشـهم من كسـب أيديهـم (6) " . أترى أنك واجد هذا الوصف في غير الرعيل الأول من أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

يرى الأسـتاذ الزاوي كمـا نقلت عنه في أول هـذا الفصل أن الحـروب التي قـام بها أبو الخطاب كان يقصد منها إلى التوسـع والسـيادة ، وهو جد عليـم أن أبا الخطاب لم يقبـل هذا الأمر إلا مكرهـاً ، وبعد أن أفتى أعظم إمام دينـي في ذلك العصر بقتله إن امتنـع عن تحمل هذا العبء الذي يختار له القوى الأمين . وهل من علامات حب السـيطرة والعلو أن يسـتولي أبو الخطاب على طرابلـس دون إراقـة قطرة من الـدم وأن يخير حاكـم ا لبلد بين

6 - السير 130

البقاء في أمته وبين إخوانه آمناً أو الرحيل إلى سلطانه موفوراً ؟ وهل من حب السلطة والتوسع أن ينتصر القائد ثم يتفقد قتلى العدو فيجد واحداً منهم مسلوباً فلا يقر له قرار حتى يعرف السالب ويؤدبه ، وهل من حب التوسع والنفوذ أن يحارب المحارب وينتصر ولكنه يعرض عن جميع المكاسب والغنائم ؟وهل من علامات التوسع أن يبقى جيش متكون من ستة آلاف

محارب محاصراً لمدينة كالقيروان مدة تطول أو تقصر ثم يخرج أهالي المدينة إلى حقولهم فيجدونها سالمة لم يتغير منها إلا ما غيرته عوامل الطبيعة من ريح ووحش . وهل يجد المتتبع لحوادث التاريخ صورة واحدة من هذه الصور الرائعة عند أولئك الذين يهاجمون أبا الخطاب ، ويوالون عليه الحرب ؟ إنه لن يجد بالتأكيد إلا عدواناً وظلماً وسرقة وغلولا ، وارتكاب الفواحش في الأنفس والأعراض والأموال لا يسلم منهم برئ ولا مذنب وهم حين تتاح لهم فرصة النصر لا يبقون على جريح ولا يرجعون عن فار .ولا يسلم منهم مسالم ، ولا ينجو منهم مال ولا عرض . ثم هم يتجاوزون كل ذلك إلى المثلة وتشويه خلقه الله وقطع الرؤوس لنيل الحظوة بها عند ملوك البغي في الدنيا .

ويقول الأستاذ الزاوي في كتابه الفتح العربي : " ومهما بلغت كثرة جيش يذهب من مصر لغزو أفريقيا فلا يمكن أن تصل واحداً من عشرين من جيش البربر الذي يمكنهم أن يعدوه لمقابلة هذا الجيش ، ولكن النصر بيد الله ، والله مع الصابرين .

هذا كلام الأستاذ الزاوي بحروفه ، وهذا التلميح لا يصدر

من مسلم سليم الصدر، صحيح العقيدة ، وأنا حين أنقل هذا الكلام عن الأستاذ وأضعه بين أيدي القارئ الكريم فإنما أريد أن يتأمل المنصف ما يدسه كتبه التاريخ عن الأمة ، وما يوحون به للناس من زيغ . على أن قضية النصر والهزيمة في الحادثة التي يشير إليها الزاوي – إذا سلمت من المغالطة – واضحة !

إن محمد بن الأشعث أعد له جيش كامل يتألف من خمسين ألف مقاتل على أوسط الأقوال ، تدفع الأجور من بيت مال الدولة في مصر أو في بغداد ليقوموا لها بالحروب وهم على استعداد في جميع الأوقات ، أما أبو الخطاب فليس له جيش تدفع له الأجور ويكون تحت الطلب في جميع الأحوال . بل إن المحاربين إنما هم أفراد من الأمة بدافع المبدأ ومحاربة الباطل . وليس لهم أي غنم في هذه الحروب الهائلة ، فهم يزودون أنفسهم ويسلحونها ، ويندفعون إلى الحرب باختيارهم ليحموا أنفسهم وبلادهم من عبث العابثين وظلم الظالمين ، ولم يكن البربر كلهم مع أبي الخطاب كما زعم الزاوي ، فإن من البربر خوارج ومعتزلة واتباع بني العباس . وهؤلاء جميعاً لا يقاتلون مع أبي الخطاب ، بل إن منهم من يقاتله كورفجومة . وإنما يتكون جيش أبي الخطاب من بعض البربر وبعض العرب يعبدون الله على مذهب عبد الله بن إباض ، وعدد هؤلاء ليس بالكثرة التي أراد أن يوحي بها الطاهر الزاوي ، ثم إن ابن الأشعث هجم على طرابلس حين نجحت مكيدته وتفرق جيش أبي الخطاب إلى حصاد الزرع وهم مطمئنون إلى أن الجيوش المهاجمة قد ولت الأدبار ، فلما وقعت الغارة المفاجئة لم يحضر إلا القليل في تتابع ، جماعة بعد جماعة ، وهكذا

استطاع جيش ابن الأشعث أن يقتل من هؤلاء الأبطال آلاف . ولم يرتو ابن الأشعث من هذه الدماء التي سالت في الموقعة ، فكان يتتبع الناس في بطون الأودية وشغاف الجبال يروع الآمنين ، ويقتل المسالمين ، ويجمع الأموال المحرمة التي عصمها الإسلام ؛ وأخيراً قطع رأس أبي الخطاب وأرسلها إلى بغداد .

وقارن أيها المسلم . بين الموقفين : موقف أبي الخطاب عندما استولى على طرابلس، وعندما احتل القيروان ، وموقف بنى العباس حين أتيحت لهم فرصة النصر .

وضع الصورتين أمام الأستاذ الزاوي ليستخرج العبرة والموعظة من التاريخ .

أبو حَاتِم الملَزوزي

أبو حاتم يعقوب بن حبيب الملزوزي النَّجِيسِي مولى كنده ، علم آخر من أعلام الإسلام ، وبطل من أبطال الكفاح ، وعدو لدود من أعداء البغي والظلم والجبروت . ولدته الحوادث السود . وأبطال الحرية والكرامة والمبادئ لا يظهرون إلا في الحوادث السود لإنقاذ الإنسانية من شر الإنسان .

قتل أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري في معركة من المعارك الحامية ، بينه وبين محمد بن الأشعث ، العامل الذي عينه أبو جعفر المنصور لحكم أفريقية ، وتفرق جيش أبي الخطاب بعد الهزيمة ، ولكن ابن الأشعث لم يكتف بهذا النصر الذي أحرزه ، ولم يقنعه الاستيلاء على هذه البلاد الفسيحة ، التي كانت تابعة لأبي الخطاب ، فعمد إلى رأس أبي الخطاب وهو قتيل في المعركة فاجتزه وبعث به إلى بغداد ، ليزيد حظوة عند أبي جعفر ، ولم يشف ذلك ما في قلبه فأمعن يقتل ويسلب ، متبعاً الفلول المنهزمة ، والشرازم الفارة ، والأحياء التي يجعلها سوء حظها في طريقه ، لا يردعه دين ولا خلق ، ثم ولى أمر البلاد من يزيد عنه بغياً وعدواناً ، فكان ينتقل بين أحياء المسلمين وقبائلهم

يسلب وينهب ، يقتل ويفجر ، فكان يدخل الأحياء ويأمر المحصنات الحرائر أن يفَلين لحيته القذرة ، وليس بعد هذا الفجور فجور ، ولا بعد هذا الظلم ظلم ...

عند ذلك تداعى أصحاب الشهامة والكرامة الذين يؤمنون بأن الله لا يرضى لهم السكوت على هذه المناكر ، ولا يحل لهم البقاء على هذا الهوان ، ينزل بأمة مسلمة ، حفظ الإسلام أعراضها ودماءها وأموالها ، فانتهكها من خانوا الله ورسوله في أمانة الدولة والدين .

تداعى هؤلاء الأبطال ، وأظهروا أنهم يريدون النظر في قضية امرأة أساء إليها زوجها ، فعقدوا اجتماعاً بحثوا فيه موقفهم ، وموقف الأمة ، وموقف هؤلاء البغاة الظالمين ، ووجدوا أنهم لا يسعهم في دين الله أن يسكتوا على ما يقع بين أيديهم وأعينهم ، وأنسوا في أنفسهم قوة يمكن أن تخف على المسلمين ما هم فيه من ذلة ومهانة ، ولو إلى حين ، فقدموا عليهم أبا حاتم الملزوزي وبايعوه على أن يعمل بكتاب الله وسنة رسول الله وهدى السلف الصالحين ، فقبل منهم واستعد للكفاح .

وما سمع الوالي العباسي بهذا الحادث حتى بعث بحملة عسكرية للقضاء على هذه الثورة ، ولكن هذه الحملة لم تنجح ، وقتل عدد غير قليل من جندها ، وتفقد أبو حاتم القتلى فوجد بعضهم مسلوباً ، فغضب ، وقال إن لم تردوا أسلابهم تركت أمركم ، فأرجعت الأسلاب ، وأعلن الجيش توبتهم من عملهم ذلك ، وسار السيرة العادلة المعروفة التي سارها المؤمنون الصادقون

من قبله في حروب أهل الإسلام الباغين ، حفظ لكرامة المسلم في دمه وماله وعرضه ولو ظلم أو بغى ، ثم عدل بين الرعية ، وإنصاف لأفراد الأمة ، وإقامة لحدود الله ، لا جبروت ولا عدوان ، ولا ظلم ولا أثرة ولا استغلال . الناس متساوون في الحقوق وفي الواجبات ، وفي فرص الحياة ، فمن اعتدى نفذ فيه حكم الله ، وذاق الناس لمدة قصيرة طعم الحكم الإسلامي ، الحكم الذي أراده الله لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فاختلسه منها عبيد الشهوة وعبيد السلطة والمال .

هدأت الأحوال في طرابلس ، واستتب الأمن والسلام ، وبدأ الناس يشعرون بالحياة الكريمة للأمة الكريمة ، فاتجه أبو حاتم إلى القيروان ليخفف عن أهلها ما أصابهم من كرب ، وما لحق بهم من أذى ، ويرفع عنهم عبث أيدي ولاة الظالمين، لا يرقبون في الله إلاًّ ولا ذمة ، ففتحها بعد حصار طويل وكان الجهد والجوع قد بلغ مبلغاً عظيما من الجند المحصور بالقيروان ، فلما تم النصر لأبي حاتم ، وفتحت له أبواب المدينة ، واستسلم الجند المحاربون ، لم يفعل ما فعله محمد بن الأشعث ، يوم انتصر على أبي الخطاب في ليبيا . إن أبا حاتم مؤمن يحس ما يعانيه هؤلاء المسلمون الذين يسوقهم الظلمة سوق الأغنام ، ولذلك فلم يمعن فيهم تقتيلا ونهباً وسلباً وتعدياً على الأعراض ، وإنما زودهم بالماء والغذاء والسلاح الضروري ، فأعطى لكل خمسة منهم قربة للماء وعصاً وخنجراً يصلحون به أمرهم ، ويدفعون به ما يعترض طريقهم من وحش مفترس وهم يعودون إلى قراهم آمنين ، كما أعطى لكل واحد منهم رغيفاً من الخبز .

لـك أن تقارن أيهـا القارئ الكريم بـين الحالـة الفظيعة التي يلاقيهـا النـاس عندما ينتصـر الظالمون ، وكيـف تذهب الأرواح والأمـوال والأعراض هدراً بعـد أن ترفع الحرب أوزارها . لك أن تقارن بين ذلك وبين هذا السـلوك الكريم الذي يعطف حتى على الباغي الظالـم ، فيقدم له ما تيسـر من مسـاعدة . لـك أن تقارن بين منتصـر يقتل ويسـلب ، ويجز الـرؤوس ، ويعبـث بالأعراض التي صانها الإسلام ، ومنتصر آخر ، يعطف على جيش العدو ، فيزوده بالزاد والسلاح ، ويتركه سالماً موفوراً ليلحق بأهله .

لقـد ضرب أبـو حاتم بهـذه السـيرة العطـرة مثلا سـامقاً للمؤمنين الذين يناط بهـم حمل أمانة الحكم ، وتجبرهم الحوادث إلـى تربية البغاة . ولكن هل تجد مثل هذه السـيرة أو قريبا منها عنـد أولئك الذيـن يحاربون باسـم الخلافة في الزمـن القديم ، أو يحاربون باسم الدولة في العصر الحديث .

أنـه ليس لأولئك ولا لهـؤلاء من مزايا أمانـة الحكم إلا حمل الأسـماء والشـعارات ، يتاجرون بها عند الرؤسـاء ، ويخدرون بها الشعوب ، ويسـتغلونها لأنفسـهم ، وبسـببهم وسبب أمثالهم من عبيد الشـهوة ، شـهوة المال وشـهوة السـلطة . وشـهوة الجنس ، أصيب الإسـلام أمس ويصاب اليوم بالنكبات المتلاحقات ، أوقفـت تقدمه ، وغلبت عليه أعداءه الذين يتربصون به الغفلة ، ويتوقعـون منه الغرة ، وينتظرون منه العثرة . حتى واتتهم تلك المصائـب جميعاً ، ينزلها الجبابرة الذين يحملون اسـم الإسـلام على أمة الإسـلام ، والذين استخدموا شرف الخلافة في محاربة مـن أولاهم الخلافـة . وأعطاهم الثقة ، وأخـذ منهم عهد الله ،

ولـم يردعهم رادع من خُلـق أو حياء أو دين . بل لقد ذهبت الخلافة ، وقامـت في كل بقعة من بلاد الإسـلام دولـة تنعق بأنها جاءت لخدمـة الأمة ، ولم تجد منهـا الأمة حتى اليـوم إلا خطباً تلقى ، واجتماعـات تعقـد ، ومديحاً تضفيه الإذاعـات والصحف على أصحاب المناصب وسـلوكا أبعـد ما يكون عـن مصلحة الأمة ، وروح الإسـلام ، وسيرة السلف الصالحين ، فلا عفة عن مال الأمة ولا وقوف عن إراقة دم بريئ لا تحل إراقته إلا بحقه .

ما ضر هؤلاء الذين يحملون اليوم أمانة الدولة ، ويقدمون على حراسـة مصالح الأمة ، ما ضر هؤلاء أن يسـيروا سيرة الصالحين من سـلف هذه الأمة ، وأن يعفوا عن أمـوال الأمة ودمائها كما عـف عنها عمر بـن عبد العزيز وأبو الخطـاب وأبو حاتم وكما عف عنهمـا أمير المؤمنين علـي بن أبي طالب عندمـا أنهزم الثائرون بقيـادة طلحة والزبير فلم يتبع مدبراً ولم يجهز على جريح ، وإنما اسـتغفر للجميع ، وضمد الجراح وواسـى القلوب : ما ضر هؤلاء الذين يتداولون كراسـي الحكم ومرافـق الدولة في مختلف بلاد الإسـلام ، أن ينزهوا ضمائرهم عن الانتقـام . وجيوبهم عن المال الحرام . وأيديهم عن إراقة الدماء .

كان أبو حاتم حقيقاً أن يسـير بالأمة سـيرة الخلفاء الراشدين ، والسـلف الصالحين. لو أمهلته أيدي الظلمة المستبدين ، أولئك الحـكام الذين لا يرضيهم أن ينتشـر الأمن والعدل والسـلام في جهـة من الجهات ، لأن ظهور ذلك يظهر مسـاوئ الحكم عندهم ، ويبعـث دبيب اليقظة في نفـوس رعاياهم ؛ تلـك الرعايا التي استنامت إلى الذلة والهوان بما لحقها من بطش وعدوان .

وهكــذا جهز أبو جعفر الجيوش وأرســلها إلــى أبي حاتم ، وبعد حروب طاحنة ووقائع سود ، قتل هذا البطل المؤمن ، كما قتل من قبله أبطال ثائرون ، برهنوا أن في الأمة من يقوم بحجة الله على البغاة ، فينتزع منهم مقاليد السلطة ، ولو لزمن قصير ، ليظهر للناس ما في حكم الإسلام من كرم وسماحة وجمال ، حين تقوم بين أفراد الأمة من حاكم ومحكوم حقوق العدل والمساواة .

الزاوي
وكرامات الأولياء

إنني لا أريد في هذا الفصل أن أناقش موضوع الكرامة ، فقد ناقشــها علماء الإسلام الأعلام بما فيه الكفاية ، وبما لا أستطيع ببضاعتي الضئيلة أن أبلغ أقله ، ولكنني أريد أن أناقش الأســتاذ الزاوي في هذا الموضوع بالذات :

قرأت للأستاذ الزاوي في كتابه " تاريخ الفتح العربي في ليبيا " إنــكاراً لكرامة نســبت إلى أحد النــاس ، فظننت أن الرجل من أولئــك الذيــن لا يعترفون بكرامات الأولياء ، ولــو كان ذلك فليس مــن حقي أن أطلبه بتصديــق كرامة معينــة ، ولكنني اطلعت فيمــا بعد على كتابه " الأعلام " وعجبت من الرجل حقاً ، عجبت لهذا الرجل الذي ينقلب في قضايا التاريخ كما يشاء له الهوى ، وسوف أضع بين يديك أيها القارئ الكريم صوراً من هذا التقلب .

بعد أن تحدث عن أبي حاتم الملزوزي في أحداثه التاريخية ، وحاول أن يضخــم عــدد الجند الذي يحارب به هذا الإمــام ، وأن يقلل من جيش خصومه ، ثم يمنحهم النصر لأن النصر للمؤمنين .

بعد هذه المحاولة التي فيها كثير من إســاءة استغلال حوادث

التاريخ لإيحاءات معينة . بعد ذلك قال :

" كان أبو حاتم من أئمة الإباضية المشهورين . وبمناسبة قتله نقل الأستاذ الشماخي في كتاب السير خرافة من صنع الذين يعملون لتفريق الكلمة ورفع أقدار بعض الناس على حساب الطعن في أقدار غيرهم .

قال الأستاذ الشماخي ما نصه : " إن مكان المعركة يستضيء نوراً كل ليلة.وقد أشتهر عندنا – من غير أراه – أن النور ينزل على قبره – يعنى قبر أبي حاتم – وقيل لم يزل ينزل حتى دفن إلى جنبه أعرابي فكف . ا . هـ ما نقله صاحب السير .

ومثل هذه الخرافة لا يصح من الأستاذ الشماخي أن يسود بها صحائف كتابه . فإن أي إنسان لا يصدق أن النور الذي كان ينزل على قبر أبي حاتم انقطع لما دفن الأعرابي إلى جانبه . ولكن الذي اختلق هذه الخرافة يريد أن يرفع من شأن أبي حاتم بالطعن في العرب . وهو خطأ في التقدير يؤدى إلى الفتنة بين المواطنين . وإلى تأريث الكراهية بينهم . ولو اقتصرت الخرافة على مدح أبي حاتم لما عندنا شئ منها . ولما تعرضنا لها بنقد " . انتهي كلام الأستاذ الزاوي .

وعجبت وأنا أقرأ هذا التعليق عن المغالطة المفضوحة . وعن تأويل كلام الناس بما لم يخطر لهم على بال .

لست أدرى – مهما فكرت – ما دخل العرب في القضية ؟ لِمَ يحشرهم الأستاذ الزاوي حتى في هذه الجزئية الصغيرة ؟ إنها حادثة فردية تتعلق بشخصين . سواء كانت صادقة أو كاذبة . فما

الذي أدخل الجنس . جنس العرب أو البربر في الموضوع ؟

إن الشماخي حين نقل القصة احترز . فأعلن أن القصة مشهورة . ولكنه لم يشاهدها بنفسه . وهذا تحقيق لا يكون إلا من ثقة يتثبت فيما يقول . فقد جعل العهدة على راويها . ولما تحدث عن دفن الأعرابي . حكاه أيضاً بقيل . حتى لا يجرأ زاعم على تكذيبه . ورغم كل ذلك . فإن الأستاذ الزاوي ناقم على الشماخي . والشماخي يذكر أن النور أنقطع عندما دفن (أعرابي) . ولكن الزاوي يجعل المسألة طعناً في العرب ورفعاً لأقدار بعض الناس بالحط في أقدار الآخرين . إلى ما هنالك من مزاعم لا تصدر إلا عن نفس مريضة . وحب متمكن لإيقاد الفتنة .

لقد كان جديراً بالأستاذ الزاوي . وهو يكتب التاريخ في هذا العصر . أن ينزه قلمه وضميره . كان جديراً به أن يتخذ من نزاهة الشماخي وصدقه أمثلة يحتذيها ويسير عليها .

إن الكرامة إذا وقعت لأبي حاتم . فلا يعنى ذلك . أن جنس أبي حاتم كلهم أصحاب كرامات . وأن المعصية إذا وقعت من أعرابي . فلا يعنى ذلك . أن الأعراب كلهم أصحاب معصية . إن أبا حاتم شخص واحد . نسبت إليه كرامة . وإن الأعرابي الذي دفن إلى جانبه شخص واحد . قيل عنه إن النور انقطع لما دفن إلى جانب أبي حاتم . وما يدرى الأستاذ الزاوي . أن هذا الأعرابي . ممن يشمله قوله تعالى : " الأعراب أشد كفرا ونفاقا .. الخ . ثم لماذا يجعل الأستاذ الزاوي الأعراب عرباً ؟ ويبنى على ذلك هذا التعليق الذي يحرص بما يملك من حيلة الأسلوب وخدعة التعبير . أن يجعل

الموضوع بين عنصري الأمة ، حتى يفتح أبوابا للخلاف ، ومن يا ترى يسعى لتأريث الكراهية بين الناس ؟ أهذا الذي يحمل اليوم قلمه ليبحث بين مطاوئ التاريخ عما يفرق به بين أبناء الأمة الواحدة ؟ أم ذلك الذي يحتاط فيما ينقله ويعلن أنه لم يشاهد .

وهل عن حسن نية يذكر الأستاذ الزاوي هذه القصة وأشباهها ليعلق عليها بهذه العبارات التي تدعو إلى الفتنة السافرة ! ؟ إن الشماخي توفي قبل أربعة قرون ، وكتابه لا يطلع عليه إلا قلة من الباحثين الذين يرجعون إلى مصادر التاريخ . فلماذا يعمد الأستاذ الزاوي إلى التنقيب ، ونقل هذه القضية اليوم ؟ لماذا لم يتركها نائمة بين أحداث التاريخ الماضي ؟ إنه لو فعل ذلك لما وجد سبباً يوجد به هذه الطعنة إلى قلب الأمة ليذكرها بأنها تتكون من عنصرين .

أنني سوف أعود إلى الأستاذ الزاوي والشماخي في حديث قريب ، ولكنني الآن أريد أن أناقشه في قضية الكرامة .

قلت في أول هذا الفصل : إنني حين قرأت كتاب الزاوي ووجدته يعلق على هذه القصة التي نقلها الشماخي بأنها خرافة . حسبت أن الزاوي لا يصدق بكرامات الأولياء ، ولو كان كذلك فليس من حقي أن أطلبه بتصديق هذه الكرامة أو غيرها . ولكن هل حقا أن الأستاذ الزاوي لا يصدق بكرامات ؟ لنأخذ بين أيدينا كتاب " أعلام ليبيا " ولنتصفح منه بعض الفصول .

قال الزاوي في كتابه " الأعلام " صفحة 47 : " ومن كراماته أنه لما حج بقى أمام النبي صلى الله عليه وسلم وقال في نفسه

: أنا لا أذهب لزيارة حمزه ولا غيره . النبي صلى الله عليه وسلم يكفيني . قال : فأخذتني سنة . فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم . فقال لي : يا أحمد يا حبيبي . عم الرجل عوض أبيه . قال فقمت في الحين وذهبت لزيارة سيدنا حمزه . وكان وقت خوف . فلقيت هناك ثلاثة رجال . أخرهم الخضر عليه السلام .

وفي فوائده قال : أخبرني الشيخ اللقاني أن الوزغ يتغذى بعينه ، وأنه – أي اللقاني – كان ذات يوم يأكل بطيخا ووزغ ينظر إليه من السقف ، فأمر بقتله ، فوجدوا معه من الخضراء التي كان الشيخ يأكلها " انتهي

قال الأستاذ الزاوي في نفس الكتاب صفحة 147 : " قال أبو القاسم : فلما حججت وزرت ، سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقلت : يا رسول الله أبو الفضل الغدامسي يقرأ عليك السلام ، وصاحبيك ، قال : فسمعت صوتا لا شك أنه صوت عمر بن الخطاب لجهارته . وهو يبلغنا . وكان يتكلم على الخواطر .

ويقول الأستاذ الزاوي في نفس الكتاب صفحة 199 : " كان أستاذا فاضلا – أبي عبد الوهاب القبسي – ورجلا صالحا وكان يرى النبي صلى الله عليه وسلم ويتحدث معه . ويقال إن هذه المحادثات وجدت بعد موته مكتوبة بخطه وبتواريخها. " انتهى .

قال الأستاذ الزاوي في نفس الكتاب صفحة 225 : (يحكى عنه – أي على ابن محمد البشت – إذا شكا إليه أحد ضياع حاجته قال له : اذهب إلى المحل الفلاني تجدها فيه ، فيذهب

فيجدها كما ذكر . أنتهي "

وقال الأســتاذ الزاوي في نفس الكتاب يتحدث عن محمد بن احمد الطرابلســي صفحة 264 : شــيخ متعبد فضله مشهور . قال في كتاب " رياض النفوس " قال أبو عبد الله مكي بن يوسف : نزلـت بطرابلس عند انصرافي من الحـج فكنت أداوم الاختلاف إليه ، فإني جالــس إليه ذات يوم ، إذ أتته امرأة بصبي قد احدودب ظهره، فلا يقدر أن يمشــي ، ولا يرفع رأســه ، وأجلســته بين يديه . فقال له الشــيخ : يا ابني : ارفع رأسك فما قدر فالتفت إلي وقال : يا أبا عبد الله أما ترى هذا الصبي ما استطاع أن يمشي . فقلت له نعم يا ســيدي ! فأمرَّ بيده على ظهره ، ثم كتب أســطراً لم أقف على ما فيها ، ثم قال له : ارفع رأســك ، فرفع رأســه ثم قال له : أمش ، فمشى . واختصم مرة في طرابلس قوم من المسلمين مع قوم من النصارى على حجر، فزعم المسلمون أنه كان بمسجد انهـدم ، وأن النصـارى قد أدخلوه في ركن من أركان كنيســتهم عمــاداً له – وزعم النصارى أن الحجر لهم قديما . فقال أبو العباس : اذهبوا بنا إلى موضع الحجر ، فســاروا حتى حازوا المكان ، فوقف أبـو العبـاس ووقف الناس معــه ، فقــال : أيها الحجـر : إن كنت كمــا قال المســلمون فقع بــإذن الله وقدرته ، وإن كنـت كما قال النصارى فاثبت مكانك . فمال الحجر حتى وقع على الأرض ، فقال للمسلمين : ارفعوا حجركم .

وقال الأســتاذ الــزاوي في نفــس الكتاب صفحــة 20 : " وهو مــن جملة الصلحاء الذين بعثهم العــارف الأكبر مولاي العربي الدرقــاوي وتبــرك بهــم ، وقد أورده في رســائله قائلا مــا نصه : "

وكنت أعرف ســيدي أبا بكر الطرابلســي المكنى عند أهل فاس " ســيدي أبو بكر بوقلاس " وجدتــه بمدينة فاس حين عرفتها ، وكان من المجاذيب الكبار ، غائبا عن حســه دائما ، وقد شــربت بوله يوماً لشــدة تصديقي بولايته . وحدثني الأســتاذ الجليــل أبو عبد الله ســيدي محمد اللحائي عنه أنه قال لبعض الطلبة : هل تسيح معــي ؟ فقــال نعم: فخرجا معا على باب الفتــوح – أي من فاس – فإذا هما بباب من أبواب طرابلس التي هي بلدته . وسمعت أنه كان مــن أولاد البــاي الذي كان هنالك ، وكان هــذا الباي لما فقده يعطــى عليه قنطاراً من المــال لمن يخبره به ، والحاصل أنهما دخلا إلى المدينة الطرابلســية. وجالا فيها ما شــاء الله ، وهذا لا يكلم هــذا ، ثــم خرجا ، فــإذا هما بباب الفتــوح بفــاس . " انتهي كلام الأستاذ الزاوي .

نقلت إليك هذه القصص من كتاب الزاوي أيها القارئ الكريم لا لأنتقدهــا ولا لأنتقد أصحابها ، فإن ذلك ليس موضوع بحثي ، وإنما أريد منك أن تعرف موقف الزاوي من التاريخ .

ينقل الشــماخي مع الاحتــراس أن نورا ينزل على قبر أبي حاتم حتــى دفن إلى جنبه أعرابي فانقطع النور ، فيثور الأســتاذ الزاوي ويغضب ويكذِّب وبجعل نقل مثل هذه الكرامة مما يبعث الشــك في أمانة المؤلف .

ولكن الــزاوي ينقل إلينا أن وليا اســتطاع أن يكلم الرســول فــي النــوم ، وأن يذهب لزيارة حمزه فيجتمــع بثلاثة رجال أخرهم الخضر ، وينقل أن الوزغ يتغذى بعينه ، وأن فلانا كان يأكل بطيخا

ووزغ ينظـر إليــه . فلما قتل الوزغ وجد البطيـخ في أمعائه . وأن حاجا يبلغ ســلام رجل إلى رســول الله صلى الله عليه وسلم فيرد عليــه عمر بن الخطاب تحيتــه . وأن رجلا كان يحـادث النبي صلى الله عليه وســلم . ولما مات وجدت محاضر هذه الجلسات مكتوبة بخطه . وأن رجلا يعرف مواضع الأشياء التي تسرق أو تضيع . فما يجيئه أحد يشـكو ضياع شـيء حتى يدله على مكانه . وأن وليا مــن الأولياء يوضع بين يديه طفل أحدب لا يسـتطيع المشــي أو رفع الرأس . فيمســح عليه بيده ثم يأمره بالرفع فيرفع . وبالمشي فيمشــي . ويختصم ناس على حجر أقيم عماداً . فيأمره بالوقوع فيقع . وينقل عن ولى آخر يأخذ معه ابن الباي في فاس ليسـيح معــه وعندما يخرج من باب الفتوح يحد نفســه بباب من أبواب طرابلــس . ثم عندما تخطر لهما العــودة فيخرجان من طرابلس يجدان نفســيهما ببــاب الفتوح في فاس . ويبلـغ من ولاية هذا الرجل أن يشرب العارف الأكبر مولاي العربي الدرقاوي بوله لشدة تصديقه بولايته .

هذه قصص ينقلها الأســتاذ الزاوي في كتابه . وهو لا ينقدها ولا يتعرض لها بتعليق . ولا يخاف أن يشك الناس في أمانته حين ينقــل مثل هذه القصــص . والذي أريد أن أقوله للأســتاذ الزاوي : أن الوقائع الســالفة – ســواء ما وقع منها لهؤلاء الذين تحدث عنهــم في كتابــه . أو لأولئك الذين تحدث عنهم الشــماخي في كتابه – أشــياء لا تجرى على ســنة الطبيعة . فهي إما أن تكون متعلقــة بقدرة الله . وإرادته وحينئذ فلا معارضة ســواء ما قبله العقل أولم يقبله . ويســتوي في ذلك قصة مهدى النفوس وأبي

حاتم الملزوزي . وهذا الــذي يجد باب فاس وباب طرابلس متجاورين، وهذا الــذي يحدث عمر بــن الخطاب وبينهما عــدد غير قليل من القرون الزمنية وغيرها كثير تجد كتبا مشــحونة بها لكل طائفة من طوائف المسلمين .

أمــا إذا أراد فهمها على قانــون الطبيعة والحياة المادية للخلق فإن شــيئا مــن ذلك لا يصدق ولقد كان جميلا أن ينقل الأســتاذ الــزاوي عن الشــماخي كما نقل عن غيــره دون أن يجعل من هذا النقل وسيلة من وسائل الطعن . أو أن يترك ما لا يثق في صحته من هذه الحوادث . فإنها ليســت حادثة من حوادث التاريخ البشري التي لها علاقة مباشرة بالأمة . ولكن الأستاذ الزاوي لا يريد ذلك إنه يتلمس وسائل الطعن. وحين كان يؤلف كتاب " الفتح العربي في ليبيا " لم يكن يقدر أنه سيؤلف كتاب الأعلام وينقل فيه ما كذَّب غيره فيه .

علــى أن الذي يقــرأ كتاب أعــلام ليبيا للأســتاذ الــزاوي وهو يحشــر فيه ما لا يحشــره رجل أوتى عقلا وتفكيرا ســليمين في هذا العصر يأســف لهذا الإسفاف . ما الذي يدعو الأستاذ الزاوي إلــى ذكر قصة الوزغة في هذا العصــر . إنه لم ينقلها على أنها كرامــة . وإنما نقلها على أنها حقيقــة علمية توصل إليها عالم من العلماء في ذلك العصر بالتجربة ولكن الأســتاذ الزاوي يعلم أن هذه التجربة غير صحيحة . فما الداعي إلى ذكرها ؟ .

وينقل الأســتاذ الزاوي قصة هذا العارف الأكبر الذي يشــرب بول آدمــي . ومهما كانت ولاية هذا الآدمي فــإن بوله يبقى قذرا

– ولو طهرته ولايته – على أنه لا شيء يجعل بول الإنسان طاهراً ، وكان ما يفهم من القصة هو التشكك في سلامة عقل هذا العارف الأكبر . لماذا ينقل الأستاذ الزاوي هذه القصة ؟ وما الحاجة إليها ؟ ألكي يزيده في تدعيم الخرافة في هذا البلد ؟ ويقوى جانب الشعوذة، حتى يطمئن أولئك الذين يستغلون عواطف الناس الدينية ؟ إن هذه القصة بالتأكيد لا ترفع من مقام الشارب ، كما أنهما لا تزيد من مقام المشروب بوله ، إن الكرامة لا تكون معصية أو سببا إلى المعصية .

فلماذا يسود الزاوي صحائف كتابه بهذه الخرافة ؟ هل يعتقد أن أحد من الناس يمكن أن يصدق ذلك ؟ .